

السلامة والصحة

www.kishk.fr

فضيلة الشيخ
عبدالحكيم كركاش

لرحمن الرحيم

متنقره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن ضل له ، ومن يضل فلا هادي له ، وأشهد الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير ، يا محمد رسول الله ، بُعِثَ لِنُخْرِجَ النَّاسَ مِنْ عِبَادَةِ الْأَوْثَانِ إِلَى عِبَادَةِ اللَّهِ وَحْدَهُ ، وَمَنْ ظَلَمَ ضَيْقَ الدُّنْيَا إِلَى سَعَةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، فَأَشْهَدُ الْأَمَانَةَ ، وَمَحَوْتُ الظُّلْمَةَ وَكَشَفْتُ الْغَمَّةَ ، جِهَادَهُ حَتَّى أَتَاكَ الْيَقِينُ ، فَجَزَاكَ اللَّهُ عَنَّا مِنْهُ وَرَسُولًا عَنْ قَوْمِهِ .

ق تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ^(١) .
مَنْ نَفْسٍ وَاحِدَةً وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ فِيهِ الدَّمَّ تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامُ إِنْ اللَّهَ كَانَ اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا يُصْلِحْ لَكُمْ لَعَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا^(٢) .
وَنَحْنُ عَلَى ذَلِكَ مِنَ الشَّاهِدِينَ .

وإذا كان ذلك كذلك فليجدد السفينة فإن البحر عميق ، وليكثر الزاد فإن السفر طويل ، وليخلص العمل فإن التأفد بصير ، وليخفف الحمل فإن العقبة كؤود .

فهلم يا أولي الأبصار ويا أهل العقول والأفهام إلى الوقوف على عتبة الآخرة لتنتبه النفوس ، فإن الناس نيام إذا ماتوا انتبهوا .

أسأل الله أن يرشدنا إلى طريقه المستقيم ، وأن يرزقنا العمل بما نسمع إنه سميع قريب مجيب الدعاء .. رب العالمين .

الإهداء

أما بعد : فإن أصدق الحديث كتاب الله تعالى ، وخير الهدى هدى سيدنا محمد ﷺ ، وشَرُّ الأمور محدثاتها ، وكل محدثة بدعة ، وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار .

وبعد : فلئن أهدى كتابي هذا (الساعة حق) إلى الذين تجردوا من كل عصبية إلا للحق وحده ، أهديه إليهم ليلسوا أن الله تعالى وهب العقل للإنسان ليهتدى به إلى طريق الخير والصلاح والفلاح والنجاح .

إلى الذين ينشدون الحقيقة العليا ، ويسعون وراء المبادئ الثابتة .

إلى الذين قال الله تعالى فيهم : ﴿ كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون . في الدنيا والآخرة ﴾ [البقرة : ٢١٩ - ٢٢٠] .

إننّي فالتفكر من لوازم الإنسان الذي يريد أن يكون سعيدا في حياته وبعد مماته ، لأنه يعلم أن الحياة الدنيا ليست هي النهاية .

فما الإنسان في جيل إلا ذرة في فضاء ، وما الجيل في زمان إلا لبنة في بناء ، وما الزمان إلا مقدمة محدودة لعالم البقاء .

فالحياة ألم يخفيه أمل ، وأمل يحققه عمل ، وعمل ينهيه أجل ، وبعد ذلك : يجزى كل امرئ بما فعل :

﴿ من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموما مدحورا . ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكورا ﴾ [الإسراء : ١٩] .

أهديه إلى ذوي البصائر وأولي الأفئدة : ﴿ الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانه فقلنا عذاب النار . ربنا إنك من تدخل النار فقد أخزيته وما للظالمين من أنصار ﴾ [آل عمران : ١٩١ - ١٩٢] .

ألا فليعلم الإنسان أن الدنيا عمل ولا حساب ، وأن الآخرة حساب ولا عمل ، وليوطن نفسه على لقاء الله .

مقدمة

الحمد لله رب العالمين : ﴿ يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور . والله يقضى بالحق والذين يدعون من دونه ، لا يقضون بشيء إن الله هو السميع البصير ﴾ [غافر : ١٩ - ٢٠] .

وأشهد أن لا إله إلا الله : من أرضى الله بإسقاط الناس كفاه الله ما بين الناس ، ومن أسخط الله بإرضاء الناس وكله الله إلى الناس ^(١) ، ومن أصلح سريرته أصلح الله علاقته .

يارب :

يا من يجيب العبد قبل سؤاله

وبجود للمصاحين بالغفران

وإذا اتاه الطالبون لعفوه

ستر القبيح وجاد بالإحسان

وأشهد أن سيدنا ونبينا وعظيمنا وحبيبنا محمداً رسول الله ، صلوات ربي وسلامه عليه . هو الإنسان الكامل والمثل الأعلى والقوة الطيبة ، أخلص قلبه لله في السر والعلن وبين ثمرة ذلك ، فقال في الحديث الشريف : « من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يكن يعلم » .

سيدى أبا القاسم يا رسول الله :

البدر دونك فى حسن وفى شرف

والبحر دونك فى خير وفى كرم

اخوك عيسى دعا ميتاً فقام له

وانت احببت اجيالا من العدم

صلى عليك الله يا علم الهدى ما هبت النسيم ، وما ناححت على الأيك الحمام .

(١) هذا معنى الحديث الذى رواه ابن حبان والطبرانى بإسناد جيد قوى [متفقى الترغيب والترهيب : ج ٢ ، ص ٦٦٤ ، ٦٦٥ طبعة دار الرافى] .

أما بعد :

فلن الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت ، والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأمانى .

فاعلم يا أبا الإسلام أنه لا بد لك من قرين يدخل معك قبرك وهو حي وتدخل معه وأنت ميت :

فلن كان صالحاً أكرمك ، وإن كان لثيماً خذلك ، فاجمله صالحاً فإنه عاك:

القبر باب وكل الناس داخله

يا ليت شعري بعد الموت : بما الدار؟

الدار دار نعيم إن عملت بما

يرضى الإله وإن خالفت : فالنار!

هما محلان ما للعبد غيرهما

فانظر لنفسك أى الدار تختار!

ما للعبد سوى الخردوس إن عملوا

وإن هفوا هفوة فالرب غفار!

كثيراً ما أحت الرغبة على فى الكتابة عن (الساعة والبعث وما قبله وما بعده)، ذلك لأننى وفتت أمام آيات من القرآن الكريم وقفة الاعتبار والنظر ، فرأيتها تاشد الخلق وتهتف بهم أن يستيقظوا من سباتهم وأن يفقهوا غفوتهم ^(١) وأن ينشطوا من سدرهم . فمن ذلك قوله تعالى : ﴿ اقترِبْ لِلناس حسابهم وهم فى غفلة معرضون . ما يأتينهم من ذكر من ربهم محدث إلا استمعوه وهم يلعبون . لاهية قلوبهم ﴾ [الأنبياء : ١ - ٣] .

وقوله جل شأنه : ﴿ يا ايها الناس اتقوا ربكم : إن زلزلة الساعة شىء عظيم . يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد ﴾ [الحج : ١ - ٢] . وقوله تبارك وتعالى : ﴿ اقترِبْ الساعة وانشق القمر .. وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر . وكذبوا واتبعوا أهواءهم وكل امر مستقر ﴾ [القمر : ١ - ٣] . ووقفت أفكر وأطيل التأمل فى هذه الانذارات الإلهية المتلاحقة التى تتخلع لها القلوب ، وتتفطر من هولها الأكباد ، من ذلك قوله جل شأنه :

(١) السورة من العنبر

فصل الساعة آتية لا ريب فيها

ونقدم في هذا الفصل آيات بينات من كتاب الله تعالى ، تخاطب العقل الرشيد بالمنطق السديد ، وتثبت على وجه اليقين أن الساعة حق وأنها آتية لا ريب فيها ولا يجادل في ذلك إلا كل كفار أثيم ، ولا ينكر ذلك إلا جاحد تحتم الله على قلبه وسمعه ، وجعل على بصره غشاوة ، فمن يهديه من بعد الله ^(١) ؟ واليك هذه الآيات البينات من سورة الحج ، وقبل الحديث عنها نعيش في رحابها ، فنقول في مقدمة السورة هذه البيانات حتى يعيش القارئ في رحابها مستظلاً في ظلها الوارف الظليل :

مقدمة :

قال صاحب البصائر : السورة مكية بالاتفاق سوى ست آيات منها ^(٢) ، فهي مدنية : ﴿ هذان خصمان ﴾ إلى قوله : ﴿ صراط الحميد ﴾ .

وعدد آياتها : ثمان وسبعون في عدد الكوفيين ، وسبع للمدنيين ، وخمس للبصريين ، وأربع للشاميين .

وكلماتها : ألفان ومائتان وإحدى وتسعون كلمة .

وحروفها : خمسة آلاف وخمسة وسبعون .

وسميت سورة الحج لاشتغالها على مناسك الحج وتعظيم الشعائر وتأذين إبراهيم للناس بالحج .

مقصود السورة إجمالاً :

الوصية بالتقوى والطاعة وبيان هول الساعة وزلزلة القيامة والحجة على إتيان المحشر والنشر وجدال أهل الباطل مع أهل الحق ، والشكاية من أهل النفاق بعد البينات ،

(١) ولسان الحال والمقال يقول : لا أحد يهدي إلا الله .

(٢) وقيل : سوى ثلاث آيات ، أربع آيات [تفسير القرطبي : ج ١٢ ، ص ٢ ط دار الكتب المصرية] .

﴿ أَقَامِينَ أَهْلَ الْقَرْيَ أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ . أَوْ أَمِنَ أَهْلَ الْقَرْيَ أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يُلْعَبُونَ . أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ [الأعراف : ٩٧ - ٩٩] .

وقوله جلت حكمته : ﴿ أَمِنْتُمْ مِنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ . أَمْ أَمِنْتُمْ مِنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا . فُتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرٌ ﴾ [المالك : ١٦ - ١٧] .

كل ذلك وغيره دعائى ، والرغبة شديدة ، والغرض ملح في الكتابة في هذا الموضوع الذى يدفع النفوس إلى الإسراع فى تحصيل الخير والبعد عن مساكن الشر ، فلأن الدنيا ليست هى دار الجزاء ، إنما الآخرة هى التى يقوم الناس فيها لرب العالمين ليلقى كل ما قدمت يداه .

فيا أخا الإسلام :

تزود من حباتك للمعاد

ولا تركن إلى الدنيا كثيراً

فإن المال يجمع للنفساد

اترضى أن تكون رفيق قوم

لهم زاد وانت بغير زاد ؟

قال الخليفة الزاهد عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه للعالم الزاهد الحسن البصرى رضى الله عنه : عطفنا يا تقي الدين . فقال الحسن : يا أمير المؤمنين : صم عن الدنيا ، وأفطر على الموت وأعد الزاد لليلة صبحها يوم القيامة !

هذا جلال الموعظة ، وتلك روعة التقوى ، صدرت عن قلب سليم خلّت في قلب سليم ، صدرت عن كلمة قالها عالم زاهد ، وطلبها خليفة زاهد ، ومن عجب أن نخرب الآخرة ونعمر الدنيا ، مع أن التى نخربها : باقية لا تنفى ، والذى نجري وراءها ونلهث من متاعها : فانية لا تبقى !

﴿ إِنَّ الَّذِينَ لَا يُزْجِرُونَ بِقَاءِ وَرُضَا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأْنَأُوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ . أُولَئِكَ بِأَوْهَامِ النَّازِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ . إِنْ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلِمُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَانِهِمْ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتٍ النَّعِيمِ . دَعَاؤُهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحْنِيتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَأَخْرَجَ دَعْوَاهُمْ أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [يونس : ١ - ١٠] .

وعب الأوثان وعبادتها وذكر نصره الرسول ﷺ ، وإقامة البرهان والحجة وخصوصية المؤمن والكافر في دين التوحيد ، وتأذين إبراهيم في الناس بالحج^(١) وتغليب الحرمات والسعائر وتفضيل القربان في الموسم ، والثناء على العباد بدفع فساد أهل الفساد ، وحديث البئر المعطلة وأنواع الحججة على إثبات القيامة وعجز الأصنام وعنادها واختيار الرسل من الملائكة والإنس ، وأمر المؤمنين بأنواع العبادة والإحسان ، والثناء عليهم باسم المسلمين ، والاعتصام بحفظ الله وحياطته في قوله تعالى^(٢) : ﴿ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴾ [الحج : ٧٨] .

المتشابهات :

قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ تَرَوْنها ﴾ وبعده : ﴿ وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى ﴾^(٣) : عمول على : أيها المخاطب كما في قوله : ﴿ وَتَرَى الْفَلَكَ مُوَخِّرَ فِيهِ ﴾ [النحل : ١٤] .
قوله تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ ﴾ [النحل : ٨] كما في سورة لقمان ، لأن هُنَا ما في هذه السورة وافق ما قبلها من الآيات وهي : نذير ، القبور ، وكذلك في لقمان وافق ما قبلها وما بعدها وهي الحمير والسعير والأمور .

قوله : ﴿ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ ﴾ زيادة (من) لقوله : ﴿ مِنْ تَرَابٍ ثُمَّ مِنْ نَظْفَةٍ ﴾ وقد جاءت آية النحل بغير من في قوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ وَمِنْكُمْ مَن يُؤَدِّ إِلَى أَرْذَلِ الْعَمَرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا ﴾ لخلوها بما جاء في هذه السورة .

قوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتَ يَدَاكَ ﴾ وفي آل عمران وغيرها : ﴿ أَيْدِيكُمْ ﴾ لأن هذه الآية نزلت في النضر بن الحارث وقيل في أبي جهل وحده ، وفي غيرها نزلت في الجماعة الذين تقدم ذكرهم .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى ﴾ قدم الصابئين لتقديم زمانيهم .

(١) نسبة لقوله سبحانه : ﴿ وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ ﴾ .

(٢) ينظر التفسير الموضوعي للقرآن للإمام الراجل محمد الغزالي ، ط دار الشروق ج ٢ ، ص ١٠٩ .

قوله تعالى : ﴿ كَلِمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا ﴾ . وفي السجدة : ﴿ مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا ﴾ لأن المراد بالغم الكرب والأخذ بالنفس حتى لا يجد صاحبه متنفساً ، وما قبله من الآيات يقتضي ذلك . وقوله : ﴿ فَطُفَّتْ لَهُمْ نَارٌ مِنْ نَارٍ ﴾ إلى قوله : ﴿ مِنْ حَدِيدٍ ﴾ .

فمن كان في ثياب من نار فوق رأسه جهنم يذوب من حره أحشاء بطنه حتى يذوب ظاهر جلده ، وعليه موكلون يضربونه بمقامع من حديد ، كيف يجد سرورا ومتنفساً من تلك الكرب التي عليه ، وليس في السجدة من هذا ذكر ، وإنما قبلها : ﴿ فَمَا وَارَاهُمُ النَّارُ كَلِمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا ﴾ [السجدة : ٢٠] .

قوله تعالى : ﴿ وَذُوقُوا ﴾ . وفي السجدة : ﴿ وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا ﴾ القول ها هنا مضمر ، وخص بالأضمار لطول الكلام بوصف العذاب ، وَخُصَّتْ سورة السجدة بالإظهار موافقة للقول قبله في مواضع منها : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْعَلْ ﴾ وقالوا أنذا ضللتنا ﴾ ، و﴿ حَقِّ الْقَوْلِ ﴾ وليس في الحج من ذلك شيء .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَدْخُلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴾ مكررة الآية ٢٣ وموجب التكرار قوله : ﴿ هَٰذَا نَحْنُ خَصِمَانِ ﴾ لأنه لا ذكر أحد الخصمين وهو : ﴿ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِعَتْ لَهُمْ نَارٌ مِنْ نَارٍ ﴾ لم يكن بد من ذكر الخصم الآخر ، فقال سبحانه : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَدْخُلُ الَّذِينَ آمَنُوا جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴾ لأن لكل فريق مقابل ولكل صفة عكس (ضد) فبعضها تتميز الأشياء .

قوله تعالى : ﴿ وَطَهَّرَ بَيْتِي لِلْقَائِمِينَ وَالْقَائِمِينَ ﴾ . وفي سورة البقرة : ﴿ وَالْعَاقِبِينَ ﴾ لأن ذكر العاكف ههنا سبق في قوله : ﴿ سِوَاءَ الْعَاقِفِ فِيهِ وَالْبَادِ ﴾ .

ومعنى : ﴿ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكُوعَ السُّجُودَ ﴾ المصلون . وقيل : ﴿ الْقَائِمِينَ ﴾ بمعنى القيمين وهم العاكفون ، لكن لما تقدم ذكرهم غير عنهم بعبارة أخرى .

قوله تعالى : ﴿ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعَمُوا الْقَانِعَ وَالْمَعْرُوفَ ﴾ كرر ، لأن الأول متصل بكلام إبراهيم وهو اعتراض ، ثم أعاده مع قوله : ﴿ وَالْبَدَنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا ﴾ وبعده : ﴿ وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أُمِلَّتْ لَهَا ﴾ حصص الأول بذكر الإهلاك ، لاتصاله بقوله : ﴿ فَأُمِلَّتْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ ثم أهلكتهم ﴿ أَمْ : أهلكتم ، والثاني بالإيماء لأن قوله : ﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ ﴾ دل على أنه لم يأتهم في الوقت ، فحسب ذكر الإيماء .

قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ ﴾ هنا ، وفي لقمان : ﴿ مِنْ دُونِهِ الْبَاطِلُ ﴾ لأن هنا وقع عشر آيات كل آية مؤكدة مرة أو مرتين ، ولهذا أيضا زيد في هذه السورة اللام في قوله : ﴿ وَإِنْ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴾ . وفي لقمان : ﴿ إِنْ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴾ . إذا لم تكن سورة لقمان بهذه الصفة .

وَأَنْ يَشْفِ قُلْتُ : لما تقدم في هذه السورة ذكر الله سبحانه وتعالى ، وذكر الشيطان ، أكدما فإنه وقع بين خيرين ، ولم يتقدم في لقمان ذكر الشيطان ، فأكد ذكر الله ، وأهل ذكر الشيطان وهذه دقيقة .

مناسبتها لما قبلها :

ومناسبتها للسورة قبلها من وجوه :

١ - إن آخر السورة قبلها وهي سورة الأنبياء كان في أمر القيامة كقوله : ﴿ وَالْقُرْبِ الْوَعْدِ الْحَقِّ ﴾ وقوله : ﴿ يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السَّجْلِ لِلْكَتَبِ ﴾ ، وأول هذه السورة الاستدلال على البعث بالبراهين العقلية .

٢ - إنه قد أقيمت في السورة السالفة الحجج الطبيعية^(١) على الوحداية ، وفي هذه السورة جعل العلم الطبيعي من براهين البعث^(٢) .

٣ - في السورة السالفة وما قبلها قصص الأنبياء وبراهينهم لأقوامهم ، وفي هذه السورة خطاب من الله للأُمم الحاضرة ، وهو خطاب يسترعى السمع ويوجب علينا ولو إجماعاً أن نعرف صنع الله في أرضه وسمائه وتديره خلق الأجنة والنبات والحيوان .

(١) وإن لم تكن مفهومه الفهم الكامل التام تأجيلاً للتزوع المطورى المتطور في النفس والقلب .
(٢) وهذا يسمى تصح الفكر الإيمان وإعماله في حياة المسلم باستمرار والدعوة للعقل الصحيح عقلاً وشرعاً .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ . يَوْمَ تُرْوَنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ﴾ [الحج : ١ - ٢] .

المفردات :

التقوى : و (اتقوا) هنا نداء للمكلفين ودعوتهم للخشية والخوف من الله والاحتشاس من كل مكره سواء كان فعلاً أو تركاً بتحقيق معنى الطاعة لله وحده في دار الدنيا .

والزلزلة : الحركة الشديدة بحيث تزيل الأشياء من أماكنها . إشارة للتحويل والزلزلة من أشرط الساعة .

والذهول : الدهش الناشئ عن الهم والغم الكثير أشبه بالسيان والسلو واللهو .

والمرضعة : الأنثى حال الإرضاع ، والمرضع ما من شأنها أن ترضع ولو لم ترضع حال وصفها به .

بدأ الله تعالى السورة الرابعة من النصف الأول^(١) من القرآن الكريم وهي سورة النساء بقوله : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ [النساء : ١] .

وفي هذا إشارة إلى المبدأ ، كما بدأ السورة الرابعة من النصف الثاني^(٢) من القرآن الكريم بقوله : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴾ [الحج : ١] . وفي هذا إشارة إلى المعاد ، لذا ناسب أن يأتي الخطاب إلى الناس جميعاً ، إذ جميعهم يشتركون في المبدأ والمعاد : ه كلكم لآدم وآدم من تراب ، ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى ﴾ كما أن الجميع سينتصرون : ﴿ وَنَفِخْ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جُمُعًا ﴾ . ﴿ وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴾ .

(١) سبحانه الله العظيم ... إنه الإبداع الإلهي والخدمة القرآنية الربانية .

وإذا كان ذلك فكلمهم مأمورون بتقوى الله، وهل التقوى إلا الخوف من الجليل والعمل بالتنزيل والرضا بالقليل والاستعداد ليوم الرحيل .

وفي هذه السورة إنذار شديد بزلزلة الساعة، وقد اختلف المفسرون في زلزلة الساعة، هل هي بعد قيام الناس من قبورهم يوم نشورهم إلى عرصات القيامة ؟ أو ذلك عبارة عن زلزلة قبل قيام الناس من أجدانهم ؟ كما قال تعالى : ﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا . وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴾ . وقال تعالى : ﴿ وَجَلَّتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً . فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ﴾ . وقال تعالى : ﴿ إِذَا رَجَّتِ الْأَرْضُ رَجًا . وَبَسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا ﴾ .

فقال قائلون : هذه الزلزلة كاثنة في آخر عمر الدنيا وأول أحوال الساعة^(١) .

وقال ابن جرير الطبري عن علقمة في قوله : ﴿ إِنْ زُلْزِلَتِ السَّاعَةُ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴾ قال : قبل الساعة أى قبل قيامها^(٢) .

وقد أورد الإمام أبو جعفر بن جرير الطبري مستند من قال ذلك في حديث الصور عن أبي هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إِنْ اللَّهَ لَا فَرْغَ مِنْ خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ خَلْقَ الصُّورِ فَأَعْطَاهُ إِسْرَافِيلُ ، فَهُوَ وَاضِعُهُ عَلَى مَا فِيهِ أَى : فَمَهْ ، شَاخِصٌ يَبْصُرُهُ إِلَى الْعَرْشِ يَنْتَظِرُ مَتَى يَوْمُهُ » . قال أبو هريرة : يا رسول الله ، وما الصور ؟ قال : « قُرْنٌ » . قال : فكيف هو ؟ قال : « قُرْنٌ عَظِيمٌ تَنْفُخُ فِيهِ ثَلَاثَ نَفْخَاتٍ : الْأُولَى نَفْخَةُ الْفَرْعِ ، وَالثَّانِيَةُ نَفْخَةُ الصَّعْقِ ، وَالثَّالِثَةُ نَفْخَةُ الْقِيَامِ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ، يَأْمُرُ اللَّهُ إِسْرَافِيلَ بِالنَّفْخَةِ الْأُولَى فَيَقُولُ : انْفُخْ نَفْخَةَ الْفَرْعِ فَيَفْزَعُ أَهْلُ السَّمَوَاتِ وَأَهْلُ الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ وَيَأْمُرُهُ فَيَمْدُهَا وَيَطْوِيهَا وَلَا يَفْتَرُ (أى : لَا يَتَوَقَّفُ وَلَا يَخْفُضُ) ، وَهُوَ الَّذِي يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَمَا يَنْظُرُ هَؤُلَاءِ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مَا لَهَا مِنْ فَوْاقٍ ﴾^(٣) . فَيَسِيرُ اللَّهُ الْجِبَالَ فَتَكُونُ سَرَابًا ، وَتُزْجَرُ الْأَرْضُ بِأَهْلِهَا رَجًا ، وَهُوَ الَّذِي يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ . تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ . قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ﴾^(٤) فَتَكُونُ الْأَرْضُ كَالسَّفِينَةِ الْمَوْثِقَةِ^(٥) فِي الْبَحْرِ ، تَضْرِبُهَا الْأَمْوَاجُ

(١) تفسير الطبري : ج ١٢ ، ص ٤ ط دار الكتب المصرية .

(٢) سورة ص : الآية ١٥ .

(٣) سورة النازعات : الآيات ٦ - ٨ .

(٤) الموقنة : الخوضنة اقرأ قوله تعالى : ﴿ أَوْ يَوْمَئِذٍ يَمَّا كَسَبُوا ﴾ .

تَكْفُزُهَا بِأَهْلِهَا^(١) ، وَكَالْقَنْدِيلِ الْمَلَقِ بِالْعَرْشِ تَرْجَحُهُ الْأَرْوَاحُ ، فَيَعِدُّ النَّاسُ عَلَى ظَهْرِهَا ، فَتُدْخِلُ الْمَرَاضِعَ ، وَتَضَعُ الْحَوَامِلَ ، وَيَشِيبُ الْوَالِدَانِ ، وَتَقْطِرُ الشَّيَاطِينُ هَارِبَةً ، حَتَّى تَأْتِيَ الْأَقْطَارُ ، فَلَقَاقَاهَا الْمَلَائِكَةُ فَضَرْبُ وَجُوهِهَا ، فَخَرَجَ ، وَيُوَلِّي النَّاسُ مَدْبِرِينَ ، يَنَادِي بَعْضُهُمْ بَعْضًا ، وَهُوَ الَّذِي يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ يَوْمَ تَوَلَّوْنَ مَدْبِرِينَ مَا لَكُمْ مِنْ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴾^(٢) . فَيُنَادِي هُمْ عَلَى ذَلِكَ إِذَا اتَّصَدَعَتِ الْأَرْضُ مِنْ قَطَرٍ إِلَى قَطَرٍ ، قَرَأُوا أَمْرًا عَظِيمًا ، فَأَخَذَهُمْ لِذَلِكَ مِنَ الْكَرْبِ مَا اللَّهُ أَعْلَمُ بِهِ ، ثُمَّ نَظَرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَإِذَا هِيَ كَالْمُهْلِ^(٣) ، ثُمَّ تَحْجِفَتْ شَجْهَهَا وَخَفِيفَ قَمَرِهَا ، وَانْتَثَرَتْ نَجْمُوهَا ، ثُمَّ كَشِطَتْ (أى : كَشَفَتْ وَرَفَعَتْ) عَنْهُمْ . قال رسول الله ﷺ : « وَالْأَمْوَاجُ لَا يَعْلَمُونَ شَيْءٌ مِمَّنْ ذَلِكَ » . قال أبو هريرة : فَمَنْ اسْتَشَى اللَّهَ حِينَ يَقُولُ : ﴿ فَفَرْجُ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ﴾ [النحل : ٨٧] .

قال : « أَوْلَيْكَ الشَّهَدَاءُ ، وَإِنَّمَا يَصِلُ الْفَرْعُ إِلَى الْأَحْيَاءِ ، أَوْلَيْكَ أَحْيَاءُ عِبَادِ رَبِّهِمْ يَزْفِقُونَ ، وَوَقَاهُمْ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ ، وَأَمْنَهُمْ ، وَهُوَ عَذَابٌ يَعْطُهُ اللَّهُ عَلَى شَرَارِ خَلْقِهِ ، وَهُوَ الَّذِي يَقُولُ : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ . يَوْمَ تُرْوَنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مَرْصَعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمَلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ﴾ [الحج : ١ - ٢] الَّتِي نَحْنُ بَيْنَ أَيْدِيهَا فَتَأْمَلُونَ مَدْبِرُونَ^(٤) .

وقال آخرون : بل ذلك هول وفزع وزلزال ولبال كائن يوم القيامة في العرصات بعد القيام من القبور ، واختار ذلك بن جرير واحتجوا بأحاديث :

روى الإمام أحمد بإسناده عن عمران بن حصين أن رسول الله ﷺ قال وهو في بعض أسفاره ، وقد تَفَاوَتْ بَيْنَ أَصْحَابِ السَّيْرِ^(٥) ، رَفَعَ بَهَاتَيْنِ الْآبَتَيْنِ صَوْتَهُ :

(١) تَكْفُزُ : تَقْلُبُ .

(٢) سورة غافر : الآيات ٣٢ ، ٣٣ .

(٣) المَهْلُ : دَرْدَى الرِّبِّ .

(٤) الحديث رواه الطبراني ويظهر بقوله في تفسير سورة الحج عند الطبري (ج ١٧ ، ص ٨٥) وليس كثير (ج ٥ ، ص ٣٨٤) وراجع في تفسير سورة الأنعام .

(٥) تَفَاوَتْ فِي الْمَدِّ .

﴿ يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شيء عظيم . يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد ﴾ [الحج : ١ - ٢] .

فلما سمع أصحابه بذلك خبطوا^(١) المظي ، وعرفوا أنه عنده قول بقوله فلما دنوا حوله قال ﷺ : « أتدرون أي يوم ذاك ؟ ذاك يوم ينادى آدم عليه السلام فيناديه ربه عز وجل ، فيقول : يا آدم ابث بعثك إلى النار . فيقول : يا رب ، وما بعث النار ؟ فيقول : من كل ألف تسع مائة وتسعة وتسعون في النار ، وواحد في الجنة » . قال : فأبلس أصحابه (تخيروا وسكنوا) حتى ما أوضوا بضاحكة ، فلما رأى ذلك قال : « أبشروا واعملوا فولدني نفس محمد بيده إنكم لبع خلقين ما كانا مع شيء قط إلا كثرتاه : يأجوج ومأجوج ، ومن هلك من بني آدم وبني إبليس » قال : فسرى عنهم^(٢) ثم قال : « اعملوا وابشروا ، فولدني نفس محمد بيده ما أنتم في الناس إلا كالشامة في جنب العير ، أو الرقعة في ذراع الدابة »^(٣) .

وقال البخاري عند تفسير هذه الآية : عن أبي سعيد قال : قال النبي ﷺ : « يقول الله تعالى يوم القيامة : يا آدم . فيقول : ليك ربنا وسعديك . فينادى بصوت : إن الله يأمرك أن تخرج من ذريتك بعثا إلى النار . قال : يا رب وما بعث النار ؟ قال : من كل ألف - أراه قال - تسعمائة وتسعة وتسعون ، فعينك تضع الحامل حملها ، ويشيب الوليد : ﴿ وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد ﴾ ، فشق ذلك على الناس ، حتى تغيرت وجوههم . قال : قال النبي ﷺ : « من يأجوج ومأجوج تسعمائة وتسعة وتسعون ، ومنكم واحد ، ثم أنتم في الناس كالشجرة السوداء في جنب الثور الأبيض ، أو كالشجرة البيضاء في جنب الثور الأسود ، وإني لأرجو أن تكونوا زرع أهل الجنة . فكثرتا ثم قال : تلك أهل الجنة ، فكثرتا ، ثم قال : شطر أهل الجنة : فكثرتا^(٤) » [رواه البخاري ومسلم والسنائي في تفسيره] .

(١) حضبوا والمظي جمع مظية وهي الدابة .

(٢) زال وروع وكشف .

(٣) ابن كثير : ط الشعب ج ٥ ، ص ٣٨٦ .

(٤) فتح الباري : (التفسير) ج ٨ ، ص ٤٤١ . وابن كثير : ط الشعب ج ٥ ، ص ٣٨٧ .

وقال الإمام أحمد عن عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ قال : « إنكم تحشرون يوم القيامة خفأة غزاة غزاة ، قالت عائشة : يا رسول الله : الرجال والنساء ينظر بعضهم إلى بعض ؟ قال : « يا عائشة : إن الأمر أشد من أن يسمهم ذلك » [رواه في المسند] .

وقال الإمام أحمد عن السيدة عائشة أيضا قالت : قلت يا رسول الله : هل يذكر الحبيب حبيبه يوم القيامة ؟ قال : « يا عائشة : أمّا عند ثلاث فلا : أما عند الميزان حتى ينقل أو يخف ، فلا . وأما عند تطاير الكتب فإمّا يعطى بيمينه وإما يعطى بشماله ، فلا . وحين يخرج عنق من النار فيطوى عليهم ، ويتغيظ عليهم ، ويقول ذلك العنق : وكلت بثلاثة ، وكلت بثلاثة ، وكلت بثلاثة : وكلت بمن ادعى مع الله إلهًا آخر ، وكلت بمن لا يؤمن بيوم الحساب ، وكلت بكل جبار عبيد . قال : فيطوى عليهم ، ويرمهم في غمرات جهنم ، ولهم جسر أدنى من الشعر وأحد من السيف ، عليه كلاب وحسك يأخذون من شاء الله ، والناس عليه كالبرق والظرف والكالرخ ، وكأجاويد الخيل والركاب ، والملاحكة يقولون : رب سلم ، سلم ، ففاج مسلم ومخدوش مسلم ومكثور في النار على وجهه » [رواه في المسند] . ومهما يكن من أمر فإن الزلزلة واقعة لا محالة ، هذا وعد الله ، وكان وعد الله مفعولا .

﴿ يوم ترونها ﴾ : هذا من باب ضمير الشأن ، ولهذا قال مفسرنا له : ﴿ تذهل كل مرضعة عما أرضعت ﴾ : أي : فشغل لحوّل ما ترى عن أحب الناس إليها ، والتي هي أشفق الناس عليه ، تدهش عنه في حال إرضاعها له ، ولهذا قال : ﴿ كل مرضعة ﴾ ولم يقل مرضع . وقال : ﴿ عما أرضعت ﴾ أي عن رضيعها قبل فطامه^(١) .

وقوله تعالى : ﴿ وتضع كل ذات حمل حملها ﴾ أي : قبل تمامه لشدة الحول . ﴿ وترى الناس سكارى ﴾ : أي من شدة الأمر الذي صاروا فيه قد دهشت عقولهم وغابت أذهانهم فمن رآهم حسب أنهم سكارى : ﴿ وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد ﴾^(٢) .

قال تعالى : ﴿ ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ويتبع كل شيطان مريد . كتب

(١) من : ومهما . حتى فطامه . من قوله من ابن كثير ج ٥ ، ص ٣٨٩ .

(٢) ابن كثير : ط الشعب ج ٥ ، ص ٣٨٩ .

وأصل النطفة : الماء العذب ويراد به هنا ماء الرجل وسمى نطفة لقلته .

والعلقة : القطعة الجامدة من الدم . والعلق والدم العبيط : الضرى .

المضغة : القطعة من اللحم بقدر ما يمضغ (أى لا شكل فيها ولا تخطيط)^(١) .

الأجل المسمى : هو حين الوضع .

الطفل : يكون للواحد والجمع .. فهو اسم جنس لمن صفته أنه طفل .

الأشد : القوة .. بمعنى نهاية القوة وكال عقل .

أردل العمر : ادنؤه وادرنؤه وأدونه . إشارة للهمز والحرف حتى لا يعقل .

هامدة : أى : مية ياسة من قولهم : جمدت الأرض إذا يست ودرست ، ومهد

الثوب : بلى .

واهتزت : أى : اهتزت نابها وتحرك .

وربت : ازدادت وانتفخت لما يتداخلها من الماء والنبات .. أى ارتفعت .

زوج : أى : لون .. ونوع إشارة إلى تعدد النعم .

تهيج : أى : حسن سائر للناظرين .

والحق : هو الثابت الذى يحق ثبوته فلا يتغير ولا يزول .. هو الله الواحد الذى

يفتقر إليه كل ما عداه فهو سبحانه الحق الحقيقى المطلق .

المناسبة وإجمال المعنى :

لما حكى سبحانه عن المشركين الجدل بغير علم فى البعث والحشر . وذمهم

على ذلك ، قضى على هذا بإثباته من وجهين :

١ - الاستدلال بخلق الحيوان وهو ما أشار إليه فى الآية الأخرى : ﴿ قل يحييها

الذى أنشأها أول مرة ﴾ [يس : ٧٩] . وقوله : ﴿ فسيقولون من بعدنا قل الذى

فطركم أول مرة ﴾ [الإسراء : ٥١] .

(١) ابن كثير : ج ٥ ، ص ٣٩٠ .

كتب عليه أنه من تولاه فإنه يضله ويهديه إلى عذاب السعير ﴾ [الحج : ٣ - ٤] .

المناسبة وإجمال المعنى :

أخرج ابن أبى حاتم ، أن هذه الآيات نزلت فى الضر بن الحارث ، وكان جدلاً ،

يقول : الملائكة بنات الله ، والقرآن أساطير الأولين ، ولا يقدر الله على إحياء من

بلى وصار تراباً .

بعد أن أخبر سبحانه - فيما سلف - بأحوال يوم القيامة وشدها ودعا الناس إلى

تقواه ، وبين أنه مع هذا التحذير الشديد ، فإن كثيراً من الناس ينكرون هذا البعث

ويجادلون فى أمور الغيب بغير علم .

هذا فريق ضال من الناس يجادل فى ذات الله بأحكامه ، فمن قائل اتخذ الرحمن

ولدا ، ومن قائل أن الملائكة بنات الله ، ومن منكر للبعث ، إلى غير ذلك من المناهض

الضالة والمشارب الآسة ، وأصحاب العقول الطائفة المستهترة ، إنهم يجادلون بغير

سلطان أتاهم ، لا علم ولا هدى ، إنما جهل وحيرة وضلال فحبذا لو كان الجدل

بالتى هى أحسن ، ولا حبذا إذا كان بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير ، وقد قدر

على هذا المجال الذى سلك طريق الشيطان أن يضله بالوسواس ، ويكون المصير

مشهوراً ، حيث يهديه إلى عذاب السعير ، فالشيطان مريد غات لا يرحم : ﴿ إن

الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير ﴾ .

قال تعالى : ﴿ يا أيها الناس إن كنتم فى ريب من البعث فإننا خلقناكم من تراب

ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ونقر فى الأرحام

ما نشاء إلى أجل مسمى ثم نخرجكم طفلاً ثم ليبلغوا أشدكم ومنكم من يتوفى ومنكم

من يرد إلى أردل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئا وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا

عليها الماء اهتزت وربت وانبتت من كل زوج بهيج . ذلك بأن الله هو الحق وأنه

يحيى الموتى وأنه على كل شئ قدير . وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث

من فى القبور ﴾ [الحج : ٥ - ٧] .

المفردات :

الريب : الشك .

٢ - الاستدلال بحال خلق النبات في قوله : ﴿ وترى الأرض هامدة ﴾ .

هذه آية انتجت خمس نتائج :

الأول : ﴿ ذلك بأن الله هو الحق ﴾ .

الثانية : ﴿ وأنه يحيى الموتى ﴾ .

الثالثة : ﴿ وأنه على كل شيء قدير ﴾ .

الرابعة : ﴿ وأن الساعة آتية لا ريب فيها ﴾ .

والخامسة : ﴿ وأن الله يبعث من في القبور ﴾ .

وفيه رد قوى وبرهان قاطع وحجة ساطعة على الذين ينكرون المعاد ، وفيهم يقول تعالى : ﴿ أو لم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين . وضرب لنا مثلا ونسى خلقه قال من يحيى العظام وهي رميم . قل يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم . الذي جعل لكم من الشجر الأخضر نارا فإذا أنتم منه توقدون . أو ليس الذي خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم بلى وهو الخلاق العليم . إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون . فسيحان الذي بيده ملكوت كل شيء وإليه ترجعون ﴾ [يس : ٧٧ - ٨٣] .

ففى هذا المشهد من سورة يس خمسة أدلة على أن البعث حق :

أولها : ﴿ قل يحييها الذي أنشأها أول مرة ﴾ أى أن الذى قدر على الإيجاد من العدم قادر على الإعادة .

وثانيها : ﴿ الذى جعل لكم من الشجر الأخضر نارا فإذا أنتم منه توقدون ﴾ أى أن الذى قدر على جمع الأضداد فجعل من الشجر الأخضر نارا قادرا على أن يجمع بين برودة الموت وحرارة الحياة .

وثالثها : ﴿ أو ليس الذى خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم بلى وهو الخلاق العليم ﴾ [يس : ٨١] أى أن الذى قدر على خلق الكون الأكبر ، قادر على خلق الأدنى : ﴿ خلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس ولكن أكثر الناس لا يعلمون . وما يستوى الأعمى والبصير والذين آمنوا وعملوا الصالحات ولا

المسء قليلا ما تتذكرون . إن الساعة لآتية لا ريب فيها ولكن أكثر الناس لا يؤمنون ﴾ [غافر : ٥٧ - ٥٩] .

رابع الأدلة : ﴿ إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون ﴾ أى أن الذى سيعيدنا بعد الموت لا يعجزه شيء فأمره بالكاف والنون : ﴿ إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون ﴾ ﴿ وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر ﴾ ﴿ وما أمر الساعة إلا كلمح البصر أو هو أقرب ﴾ ﴿ فإنا هي زجرة واحدة فإذا هم بالساهرة ﴾ .
خامس الأدلة : ﴿ فسيحان الذى بيده ملكوت كل شيء وإليه ترجعون ﴾ فالوجود ملكه والقضاء حكمته ، وكل الكائنات طوع وإرادته ، هو الغنى الذى لا يفتقر إلى أحد ، القوى الذى لا يحتاج إلى معين ، على فقهر ووطن فخير وتلك فقدر .
قوله تعالى : ﴿ يا أيها الناس إن كنتم في ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب ﴾ أى إن وقع الشك في نفوسكم من البعث ، فإنا خلقنا أباكم آدم من تراب كما خلقناكم أنتم من عناصر هذا التراب مثل الكربون والدهن والمغنسيوم والفوسفور والحديد والجير والكبريت والماء ثم تحول هذا التراب كما قال تعالى : ﴿ ثم جعل نسله من سلاله من ماء مهين . ثم سواه ونفخ فيه من روحه وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلا ما تشكرون ﴾ [السجدة : ٨ - ٩] .

وإنما بدأ الخلق هنا بالتراب لأننا سنصير ترابا في القبور فالذى قدر على أن يخلق من التراب إنسانا قادر بالأولى أن يعيد هذا الإنسان من التراب : ﴿ وهو الذى يبدؤ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه وله المثل الأعلى في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم ﴾ [الروم : ٢٧] .

﴿ ثم من نطفة ﴾ : وهو ما يصب في الأرحام من ماء الرجال .

﴿ ثم من علقه ﴾ : وهى تلك القطعة من الدم المتجمد .

﴿ ثم من مضغة ﴾ : وهو مقدار ما يمتزج من اللحم وهو قطعة اللحم .

﴿ ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة ﴾ : وهذه المضغة قد تكون مخلقة مسواة سالمة من العيوب والنقصان تمت فيها أحوال الخلق ورسومه ، وقد تكون غير مخلقة أى غير مستوية وفيها نقص ولم يتم فيها رسوم الخلقة ، فسيحان من يصور خلقه : ﴿ لبيّن لكم ونقر في الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى ﴾ .

تعالى : ﴿ الله الذى خلقكم من ضعف ثم جعل من بعد ضعف قوة ثم جعل من بعد قوة ضعفا وشيبة يخلق ما يشاء وهو العليم القديم ﴾ [الروم : ٥٤]^(١) .

وقوله تعالى : ﴿ وترى الأرض هامدة ﴾ : هذا دليل آخر على قدرته تعالى على إحياء الموتى ، كما يحيى الأرض الميتة الهامدة ، روى القحطبة التى لا نبت فيها ولا شئ^(٢) .

وقال السدى : مينة . ﴿ فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج ﴾ أى فإذا أنزل الله عليها المطر اهتزت أى تحركت بالنبات وحييت بعد موتها ، وربت ، أى ارتفعت لما سكن فيها الثرى ، ثم أنبتت ما فيها من الألوان والفنون ، من ثمار وزروع ، وأشتات النباتات فى اختلاف ألوانها وطموها ، وروائحها وأشكالها ومنافعها ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وأنبتت من كل زوج بهيج ﴾ أى حسن النظر طيب الريح^(٣) .

وقوله : ﴿ ذلك بأن الله هو الحق ﴾ أى الخالق المدبر الفعال لما يشاء^(٤) .

﴿ وأنه يحيى الموتى ﴾ أى كما أحيا الأرض الميتة وأنبت منها هذه الأنواع^(٥) .

﴿ إن الذى أحيها يحيى الموتى إنه على كل شئ قدير ﴾ و ﴿ إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون ﴾ .

﴿ وأن الساعة آتية لا ريب فيها ﴾ أى كائنة لا شك فيها ولا مرية^(٦) .

﴿ وأن الله يبعث من فى القبور ﴾ أى يبعدهم بعدما صاروا فى قبورهم ومثما ويوجدتهم بعد المم ، كما قال تعالى : ﴿ وضرب لنا مثلا ونسى خلقه قال من يحيى العظام وهى رميم . قل يحييها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم . الذى جعل لكم من الشجر الأخضر نارا فإذا أنتم منه توقدون ﴾ [يس : ٧٨-٨٠]^(٧) .

وقال الإمام أحمد بسنده عن لقيط بن عامر أنه قال : يا رسول الله : أكلمنا بربى ربه عز وجل يوم القيامة ؟ وما آية ذلك فى خلقه ؟ فقال رسول الله ﷺ : « أليس كلكم ينظر إلى القمر محليا به ؟ » قلنا : بلى . قال : « فإله أعظم » . قال : قلت

(٧:١) تفسير ابن كثير : ج ٥ ، ص ٣٩١ - ٣٩٣ ط الشعب .

وقال مجاهد : هو السقط مخلوق وغير مخلوق ، فإذا مضى عليها أربعون يوما وهى مضغة أرسل الله تعالى ملكا إليه فتفح فيها الروح ، وسواها كما يشاء الله عز وجل من حسن وقيح ، وذكر وأنثى وكسب رزقها وأجلها وشقى أو سعيد . كما ثبت فى الصحيحين عن ابن مسعود قال : حدثنا رسول الله ﷺ وهو الصادق المصدوق : « إن خلق أحدكم يجمع فى بطن أمه أربعين ليلة ، ثم يكون علقه مثل ذلك ، ثم يكون مضغة مثل ذلك ، ثم يبعث الله إليه الملك فيؤمر بأربع كلمات فيكسب رزقه وعمله وأجله وشقى أو سعيد ثم ينفخ فيه الروح » [رواه البخارى ومسلم فى كتاب القدر] . وروى ابن أبى حاتم وابن جرير بسندهما عن عبد الله قال : « النطفة إذا استقرت فى الرحم جاءها ملك بكفه فقال : يارب مخلقة أو غير مخلقة ؟ فإن قيل : غير مخلقة لم تكن نسمة ، وقذفها الأرحام دما ، وإن قيل : (مخلقة) ، قال : أى رب ، ذكر أو أنثى ؟ شقى أو سعيد ؟ ما الأجل ؟ وما الأثر ؟ وبأى أرض يموت ؟ قال : فيقال للنطفة : من ربك ؟ فتقول : الله . فيقال : من رازقك ؟ فتقول : الله . فيقال له : اذهب إلى أم الكتاب ، فإنك ستجد فيه قصة هذه النطفة . قال : فيخلق فيعيش من أجلها وتأكل رزقها ونظا أثرها حتى إذا جاء أجلها ماتت فدفت فى ذلك المكان » . ثم تلا عامر الشعبي : ﴿ يا أيها الناس إن كنتم فى ريب من البعث فإننا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقه ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة ﴾ . فإذا بلغت مضغة نكست فى الخلق الرابع فكانت نسمة ، وإن كانت غير مخلقة قذفها الأرحام دما ، وإن كانت مخلقة نكست فى الخلق^(١) .

وقوله تعالى : ﴿ ثم نخرجكم طفلا ﴾ أى ضعيفا فى يده ، وسمعه وبصره وحواسه ، ويطشه وعقله ، ثم يعطيه الله القوة شيئا فشيئا ، ويطلف به ، ويخفف عليه والدبه فى آناء الليل وأطراف النهار ، ولهذا قال : ﴿ ثم لتبلغوا أشدكم ﴾ أى يتكامل القوى ويتزايد ، ويصل إلى عتوان الشباب وحسن المنظر^(٢) .

﴿ ومنكم من يتوفى ﴾ : أى فى حالة شبابه وقواه . ﴿ ومنكم من يرد إلى أرذل العمر ﴾ : وهو الشيخوخة والهزم ، وضعف القوة والعقل والفهم ، وتناقض الأحوال من الحرف وضعف الفكر ، ولهذا قال : ﴿ لكيلا يعلم من بعد علم شيئا ﴾ كما قال

(٢:١) ابن كثير : ج ٥ ، ص ٣٩٠ ط الشعب .

أطوار خلق الإنسان(*)

قال تعالى : ﴿ ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين . ثم جعلناه نطفة في قرار مكين . ثم خلقنا النطفة علقة فخلقها مضغة فخلقها عظاما فكسونا العظام لحما ثم أنشأناه خلقا آخر فبإراده أحسن الخالقين ﴾ [المؤمنون : ١٢ - ١٤] .

إن القرآن الكريم هو المعجزة الخالدة التي تربينا من أسرار الكون عجا ، والآية المصورة التي لا تزال تأثينا من كل شيء سببا ، ولقد قال تعالى : ﴿ ما فرطنا في الكتاب من شيء ﴾ والآية الكريمة التي نحن بصدها تبحث الإنسان بحثا دقيقا إذ هو من أهم الأبحاث العلمية ، ومن أدق الحقائق والأسرار الكيميائية ، كما تبحث علم الأجنة الذي هو من أهم العلوم الطبية الحديثة .

وسنرى فيما يلي ما تتناوله الآية الكريمة من أسمى الأغراض وأدق المعاني .

ولسهولة بحث الآية نقسم شرحها إلى الأطوار التي ذكرتها وذلك استنادا على قوله تعالى في سورة نوح : ﴿ ولقد خلقكم أطوارا ﴾ [نوح : ١٤]^(١) فنبداً بخلق الإنسان من طين ثم تنتقل إلى جميع الأطوار الأخرى من نطفة وعلقة ومضغة إلى آخر ما ذكرته الآية الكريمة ، وفي أثناء ذلك سنقوم بتفسير ما يتعلق بموضوع الخلق من آيات .

طور الطين

عناصر الطين : قال تعالى : ﴿ ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ﴾ والطين : هو ذلك الخليط المعروف بالتراب (الرغام) حين يمتزج بالماء ، فالإنسان بحسب الآية الشريفة خلق منهما جميعا ، أما خلقه من التراب فقوله تعالى : ﴿ ومن

(١) الحمد لله - لنبي ومفتي لعنيل عنوان الفضل بسندى من القرآن .

(٢) الطور : بمعنى الرحلة بعد المرحلة ... قال سبحانه : ﴿ ولقد خلقكم أطوارا ﴾ .

بارسول الله يحيى الله الموتى ؟ وما آية ذلك في خلقه ؟ قال : « أما مرتوت يودى أهلك محولا »^(١) قال : بلى . قال : « ثم مرتوت به يهتر خضرنا »^(٢) قال : بلى . قال : وكذلك يحيى الله الموتى وذلك آية الله في خلقه » [المسند : ١١/٤] .

فصل :

الإعادة أمون من البدء ، وليس في حق الله هين وأهون ، فكله مع القدرة الإلهية مهيئ : ﴿ فلينظر الإنسان مم خلق ؟ خلق من ماء دافق يخرج من بين الصلب والترائب إنه على رجعه لقادر يوم تبلى السرائر فما له من قوة ولا ناصر . والسماء ذات الريح والأرض ذات الصدع إنه يقول فصل وما هو بالفرل ﴾ . ﴿ وهو الذى يدؤ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه وله المثل الأعلى في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم ﴾ . وقد جاءت هذه الآية الكريمة في سياق قوله جل شأنه : ﴿ ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره ثم إذا دعاكم دعوة من الأرض إذا أنتم تخرجون وله من في السموات والأرض كل له قانتون ﴾ .

وللعلم كلمته في خلق الإنسان مم خلق ؟ وكيف خلق ؟ ثم جاء إلى الدنيا .

(١) التشنل : انقطاع المطر . وإدخال : غير عامر بالنبات والشجر ... فهو أشبه بالفر كالأرض الجدهاء .

الصوديوم ويبلغ مقداره في الجسم ٣٪ من وزنه .
٢ - أملاح البوتاسيوم المرادفة لأملاح الصوديوم وتدخل في تركيب الجسم بنسبة أقل من سابقتها .

٣ - وتوجد أملاح الجير بنسبة كبيرة في العظام بشكل فسفاته ، وتوجد كذلك في الأنسجة المختلفة في سوائها ومنها أملاح المنسوم ، وأملاح هاتين المادتين توجد في الجسم كذلك على شكل كلورات وكربونات وفسفات ويوجد فلورور الجير كذلك في الأسنان .

٤ - وأملاح الليثيوم توجد آثار منها في الجسم .

٥ - وفي العصارة المعوية يوجد حامض الكلورودريك ، وهو مكون من عنصر الكلورين والهيدروجين .

وأما المركبات العضوية المركبة للجسم فهي :

١ - البروتينات أو المواد الزلاية وهي مركبات معقدة من الكربون تحتوي بجانب الكربون على الهيدروجين والأكسجين والأزوت والكبريت ومنها ما يحتوي كذلك على الفسفور .

٢ - الدهنيات وتتركب من الكربون والهيدروجين والأكسجين .

٣ - الكربو هيدرات أو المواد النشوية أو السكرية وتتركب من عين عناصر الدهنيات ، ولكنها تخالفها في وجود عنصرى الهيدروجين والأكسجين فيها بنسبة وجودهما في الماء وهي (٢ : ١) .

والماء يعد من أهم المركبات غير العضوية القيمة لكيان أجسامنا ، إذ تبلغ نسبة الماء في الجسم ٦٦٪ من وزنه ويختلف مقدار الماء باختلاف أنسجة الجسم ، فبينما تصل نسبته في الأسنان ١٪ ، تراها في عضلات الجسم ٧٥٪ وفي الدم ٧٨٪ وكذلك الحال في الحيوان . بل إن الثبات يكون الماء كذلك جزءاً هاماً فيه .

كيف خلق الإنسان من طين ؟

ترى مما تقدم أن المواد التي يتركب منها جسم الإنسان ، هي بعض محتويات القشرة الأرضية ، فإن قلت : إن الإنسان لا يتكون منها جميعاً ، وإن هنالك من

آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم تنشقرون [الروم : ٢٠] . وأما خلقه من ماء فقله تعالى : ﴿ وهو الذى خلق من الماء بشرا فجعله نسبا وصهرا وكان ربك قديرا ﴾ [الفرقان : ٥٤] . وقوله تعالى : ﴿ والله خلق كل دابة من ماء فمنهم من يشى على بطنه ومنهم من يشى على رجلين ومنهم من يشى على أربع يخلق الله ما يشاء إن الله على كل شىء قدير ﴾ [النور : ٤٥] .

وعناصر الطين : هي التي تتكون منها القشرة الأرضية ، والعناصر المعروفة لدينا اليوم تبلغ التسعين عنصرا ، تسعة منها هي أكثرها انتشارا وتكون ٩٨٪ من القشرة الأرضية ، وهي : الأكسجين والسليكون والألمنيوم والحديد والجير والصوديوم والبوتاسيوم والمنسيوم والهيدروجين ... إلخ وبقاى العناصر ويكون ٢٪ منها ، وسنرى أن أجسامنا لا تتكون إلا من نفس هذه العناصر .

ويمكن تقسيم العناصر المخلوطة لنا إلى قسمين كبيرين :

١ - عناصر غير معدنية : كالهيدروجين والأكسجين والكربون والأزوت والكبريت والفوسفور والكلورين والأيودين والفلورين والسليكون .

٢ - وعناصر معدنية : كالصوديوم والبوتاسيوم والكالسيوم (الجير) والمنجنيز والحديد والنحاس ... إلخ .

ويجب أن نبين هنا أن هذه العناصر لا توجد كلها خالصة في القشرة الأرضية ، بل أغلبها موجود على شكل مركبات كيميائية كوجود الكلورين متحدا مع الصوديوم ليكون ملح الطعام (كلورور الصوديوم) وكوجود الصوديوم على هيئة نترات أو كبريتات وكوجود الجير على هيئة فسفات ... إلخ .

عناصر جسم الإنسان :

إذا نظرنا إلى جسم الإنسان لوجدناه مكونا من نفس العناصر غير المعدنية والعناصر المعدنية التي ذكرناها وهي التي تتكون منها أجسامنا ، وهي موجودة فيما على شكل مركبات عديدة غير عضوية وأخرى عضوية .

فأما المركبات غير العضوية فهي :

١ - كلورور الصوديوم وكبريتاته وكربوناته وفسفاته ، وأهم هذه كلها كلورور

محتويات القشرة الأرضية ما لا يدخل في تركيبه . قلنا لك : إن الله تعالى بين ذلك بينا وأبنا فقال : ﴿ ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ﴾ والسلالة معناها الخلاصة ، ويكون معنى الآية الكريمة أن الله تعالى خلق الإنسان من خلاصة خاصة من الطين ، وهي المواد التي ذكرناها وتركيب منها جسم كل منها .

ويقرب هذا المعنى إليك قوله تعالى : ﴿ خلق الإنسان من صلصال كالفخار ﴾ وكلنا يعلم أن الفخار لا يصنع ولا يتكون إلا من طين غني بالعناصر التي يتركب منها الإنسان وينشأ منها النبات كطمي نهر النيل مثلا ، ويكون الفخار بذلك شبيها بالطين الذي صنع منه الإنسان ، والذي سماه الله تعالى صلصلا ، وننتبه هذه الفرصة لنذكر أن النبات يشبه تمام الشبه جسم الإنسان من حيث أصل تركيبه واتلاف عناصره فالبذرة حين توضع في الأرض الخصبة المحتوية غالباً على العناصر المكونة للنبات ، كالأكسجين والحديد والكلسيوم والبوتاسيوم والمغنسيوم والهيدروجين والأزوت والكبريت والفسفور والكربون ... إلخ ثم تروى بالماء ، ويتكون الطين لا تلبث أن تجدد ذلك الطمي وقد غدا جزوعا ، وفروعا ، ولؤلؤا ، وزهورا وغمارا .

إن البذرة التي وضعناها في الأرض ، ما هي إلا بويضة نباتية ملقحة بعضو الذكر الباقى ويقابلها في الإنسان بويضة الأنثى حين تلقح بتطفة الذكر .

وإننا إذا نظرنا إلى الإنسان ، لوجدناه جسما يتركب من أعضاء مختلفة ، وهذه الأعضاء تتركب بدورها من أنسجة خاصة ، وهذه بدورها تتركب من خلايا دقيقة مرتبة ترتيبا محكما ، منسقة تنسيقاً بديها . ثم إننا إذا تتبعنا الوحدة البشرية ، وهي الخلية ، نجد أن أهم محتوياتها البروتوبلازم ، والبيروتوبلازم هو مادة نصف سائلة عديدة اللون ، تتركب من البروتين ومن كمية قليلة من الدهن ، وأخرى معلومة من الكربوهيدرات ، ويحتوى البروتوبلازم أثناء الحياة على بعض عناصر أخرى عالقة به ، بحيث يصبح البروتوبلازم كتلة غير حية من البروتين عند فقدتها ، وهذه العناصر هي :

الأكسجين وأصلاح أخرى أهمها الجير ، ودهن ، وبروتين ومركب آخر يحتوي على آثار من الحديد وهذا الأخير هو الذي يعطى البروتوبلازم القدرة على تخزين الأكسجين الذي لو عمل على إخراجها ، مات البروتوبلازم ، وأصبح كتلة غير حية من العناصر المذكورة .

- فترى من ذلك أن الوحدة البشرية هي كذلك من مادة الطين ، فإذا وضعت في التربة الصالحة لها وهي الرحم وزودت بعناصر الطين ، كثرت ونمت وأصبحت المادة الطينية جسما ، وأعضاء ، وأنسجة وخلايا مختلفة .

قال تعالى : ﴿ قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ﴾ [العنكبوت : ٢٠] . أى فاعلموا وتعلموا وتكلموا في كيفية خلق الإنسان من عناصر الأرض وأجزائها ، وكيف جعل الله من التربة الأرضية المخلوقات كلها ، بل كيف حول الأرض الميتة إلى كائنات حية تنفس وتأكل وتعمل وتعيش ، ألم يقل الله تعالى : ﴿ وآية لهم الأرض الميتة أحييناها ﴾ أى حولناها إلى كائنات حية ، منها : الجنس البشرى والحيوان والنبات ، وقوله : ﴿ ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت إن الذي أحيانا لمعنى الموق إنه على كل شيء قدير ﴾ [فصلت : ٣٩] .

وكما يتكون النبات من طين الأرض ، كذلك يتكون الإنسان ، ولعل ذلك تفسير قوله تعالى : ﴿ والله أنبتكم من الأرض نباتا ، ثم يعيدكم فيها ويخرجهكم إخراجا ﴾ . وأما قوله تعالى : ﴿ إنا خلقناهم من طين لازب ﴾ [الصافات : ١١] .

فاللروب صفة للطين ، ومعناه اللصوق والالتصاق ، ولزب الطين لزق وصلب ، أى من طين متماسك ، وسلالة الطين اللازب سميت صلصلا وذلك في قوله تعالى : ﴿ وإذا قال ربك للملائكة إني خالق بشرا من طين فقلوا له ساجدين ﴾ [الحجر : ٢٨ - ٢٩] وإنك لترى لفظ (صلصال) هنا يقابل لفظ طين في قوله تعالى : ﴿ وإذا قال ربك للملائكة إني خالق بشرا من طين فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقلوا له ساجدين ﴾ [ص : ٧١] .

وقوله تعالى : ﴿ من حجا ﴾ أى أن الصلصال متكون منه ، ﴿ الحجا ﴾ : الطين الأسود المتين . ومعنى ذلك : أن الطين الذي خلق منه الإنسان مر في طور كان فيه متنا ، أى متفكنا ، أو بعبارة أخرى علمية ، أنه قد حصل قبل تكونه تفاعل كيميائي بين عناصره ومركباته مع وجود الماء ، وكانت نتيجة ذلك اتحاد عناصر خاصة ببعضها ، وخروج غازات خاصة نتيجة التفاعل ، كغاز كبريتيد الهيدروجين الكبريه الرائحة والنشادر وغيرها وذلك كما يحصل في الأنسدة البلدية والرم قبل تحويلها إلى تراب ظهور لا رائحة له ولقد قال تعالى : ﴿ وضرب لنا مثلا ونسى خلقه قال من يحيى العظام

وهي رمي . قل يحيا الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم ﴿ يس : ٧٨ - ٧٩ ﴾ .
فعندما يموت المرء يتبدى جسمه في التحلل إلى عناصره التي ذكرناها ، وتساعد غازات خاصة نتيجة ذلك التحلل ، ويفقد الجسم بعض عناصر أخرى ، وفي هذه الحالة يسمى (الحياة) وكذلك الحال إذا حرق .

وبعد ذلك يصير ترابا ، وهو قوله تعالى : ﴿ منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى ﴾ . ونحن مختلط التراب بالماء يصير طينا .

وأما قوله تعالى : ﴿ مستنون ﴾ مضعة للحمة ، ومعناه (منغير) وذلك لما بينا من التفاعل الكيميائي . وقال صاحب لسان العرب : يقال هو المنغير ، وقال أبو عمرو : ﴿ من حمأ مسنون ﴾ أى منغير متن . وقال أبو الهيثم : من الماء فهو مسنون أى منغير . وتكون الأدوار التي مر بها الإنسان عند الخلق من طين هي : أن الله تعالى خلق الأرض بعناصرها ، ثم شاء أن يخلق الإنسان من هذه العناصر ، فجمع سلاله ، أى خلاصته منها ، وهي التي تتركب منها أجسامنا كما بينا . وهذه السلسلة حدثت بتفاعلات كيميائية خاصة وهي التي تسمى بالحما المسنون ونحن ثم التفاعل أصبحت ترابا ، فخلط هذا التراب بالماء ، ففدا طينا لازبا أو صلصالا كالفخار فسوى الله تعالى هذا وهو قوله : ﴿ فاذا سويته ﴾ أى جعلته على هيئة الإنسان ، قال تعالى : ﴿ لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم ﴾ . وقال تعالى : ﴿ ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم ﴾ . وقال : ﴿ وخلق كل شيء فقدره تقديرا ﴾ . وقال : ﴿ وصورناكم فأحسن صوركم ﴾ وبعد ذلك أوجد فيه الروح وهو قوله : ﴿ ونفخت فيه من روحي ﴾ أى خلقت فيه روحا من عندي .

وهكذا خلق الله تعالى آدم من طين كما بينا ، وخلق منه أولاده وأحفاده وذريته بعضهم من بعض وكلهم من أصل الطين كذلك ، ثم بعث فيهم الروح والحياة ، وهو قوله تعالى : ﴿ سبحانه الذي خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم وما لا يعلمون ﴾ . قوله : ﴿ مما تنبت الأرض ﴾ أى من الأرض كما ذكرنا . وقوله : ﴿ ومن أنفسهم ﴾ أى بعضهم من بعض عن طريق التناسل .

وقوله : ﴿ خلق الأزواج كلها ﴾ أى الإنسان والحيوان والنبات ، إذ جعلهم من ذكر وأنثى وهو كقوله : ﴿ ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون ﴾ . والنبات

يدخل في ذلك إذ قال تعالى عنه : ﴿ أولم يروا إلى الأرض كم أنبتنا فيها من كل زوج كريم ﴾ أى ذكر وأنثى كل له أعضاؤه الخاصة به وبعضه فيه أعضاء الذكر والأنثى تنفح أولادها ثانيا ، وهو ما بينه قوله جل شأنه : ﴿ وأرسلنا الرياح لواقح ﴾ تحمل حبات الذكر لتضعها في أعضاء الأنثى لتلقيحها^(١) . وهذه كلها أشياء لم يكتشفها العلم إلا حديثا وذكرها القرآن الكريم .

أنبت الله تعالى في الأرض من كل زوج كريم ، وهو عين ما قاله في الإنسان :

﴿ وخلقكم أزواجا ﴾ .

وأما قوله تعالى : ﴿ وما لا يعلمون ﴾ أى من الروح ، وحقا لقد عجزت عقولنا عن إدراك كنهها أو معرفة ماهيتها مع وجودها معنا أينما سرنا نحس بها ولا نستطيع فكيفها قال تعالى : ﴿ وفي الأرض آيات للموقنين وفي أنفسكم أفلا تبصرون ﴾ . فسبحان ﴿ عالم الغيب والشهادة العزيز الرحيم . الذي أحسن كل شيء خلقه وبدأ خلق الإنسان من طين ﴾ [السجدة : ٦ - ٧] .

طور النطفة

شكل النطفة :

قال تعالى : ﴿ ثم جعلناه نطفة ﴾ والنطفة هي الحيوان المنوي الذي ينشأ في خصية الرجل ، ويبلغ طوله نحو الاثني والخمسين ميكرونا إلى الاثني والستين وهو مقسم إلى أربعة أقسام ، هي : الرأس والعنق والجسم والذنب ، وبعد الذنب يوجد جزء يسمى بالمؤخرة ، والرأس يبلغ طوله نحو الأربعة إلى الخمسة ميكرونات وهو مدب الطرف الأعلى ويشبه الرمح وذلك لأنه يستعمل في قطع جزء من بويضة الأنثى لاختراقها ويكسو ثلاثة أرباع جرنه العلوى غشاء خاص يسمى بالكبود .

والعنق يقع في أسفل الرأس ، بين هذا الأخير والجسم ، ويوجد أعلى العنق جزء يسمى (الستريول الأمامي) .

(١) هذه واحدة من وظائف الرياح .

ويتصل بالحافة الخلفية لحسم الخلفية جسم يسمى بالبريخ وهو مكون من أنبوبة واحدة مخرجة تستقبل من طرف فوهتها العليا القنرات الخارجة من الخلفية ويتند عند فوهتها الأسفل مكررة أسطوانة عصبية شبيكة أجدر تسمى القناة الثالثة للبنى وهي التي تسمح بمرور الأورازات إلى مخرى البول

تتكون مادة الخلفية بوجه عام من قى منوية يبلغ طولها مقدارا كبيرا إذا مددناها .

تبدأ كل قناة بقرب الصفات وبعد تفرجات عديدة تنتهى إلى قنوات مستقيمة بعد أن تكون قد أعدت بقناة أو أكثر من القنى المنوية وتتقى القنوات المستقيمة إلى جديوم الخلفية وتكون هناك بأشادها شبكة من القنرات المختلفة المصنم تسمى بالشبكة الخلفية والقنرات المستقيمة مبطنة من الداخل بطبقة واحدة من الخلايا المسطحة أو الخلفية وكذلك أنابيب الشبكة الخلفية .

ومن الشبكة الخلفية يخرج عدد محدود من القنرات الخارجة من الخلفية تتصل بعد تفرجات بسيطة بالبريخ وهذه القنرات الخارجة مبطنة من الداخل ببشرة ذات خلايا عمودية ذات أهداب .

والبريخ يبلغ طوله من 1 - 8 أمتار وهو مبطن من الداخل بخلايا عمودية طويلة تخوى كل منها على نواة يفضية الشكل .

وتوجد عند قاعدتها خلايا عديدة الزوايا أصغر حجما تخوى كل منها على نواة كروية .

وتخوى الخلايا العمودية على أهداب تنحى نحو داخل الأنبوبة ويلاحظ في هذه الخلايا وجود جهاز خاص يسمى (جهاز جورلى) .

ب - تركيب القنى المنوية :

تتكون القنى المنوية من نسيج خام صفيحي التركيب وتغطي هذه الصفائح بخلايا تتكون القنى المنوية من نسيج خام صفيحي التركيب وتغطي هذه الصفائح بخلايا مسطحة وتحمل مادة الصفائح خيوط مختلفة أهمها خيوط خاصة من النوع المرت على زلى المعاء القاعدى للقنى المنوية مباشرة خلايا مكعبة تحتوى الواحدة منها على نواة ذات شكل شبيكي غير منتظم ، وتنتشر هذه الخلايا بهذا الشكل في وقت راحتها ، وكذلك قد تجددها في بعض الأنابيب الصغيرة في دور الانقسام ، هذه الخلايا تسمى

ويتبع الجسم بين القنى والذليل ، وهو حيطي الشكل ، ويتر من الخلف بما يسمى بالأسطوانة الطرفية ، والبستر بول الخلفى موضوع عند اتصال الجسم بالقنى ، ومنه يتند شريط خاص عطاء نيزاب ، والشريط يمر في الجسم والذنب ، ويلتف حوله حيط حلزولى الشكل ، عطاء بحافطة تخوى على (كوندوبوزومى) وتسمى الحافطة (الشياكوندر) .

والذليل يبلغ طوله من 41 إلى 52 ميكرونا ، ويتكون من شريط مخوى ، عطاء بحافطة بروتوبلازمية ، والمخرجة وهي القسم الواقع بعد الذليل لا يتكون إلا من الشريط المذكور ، ويبلغ طولها ستة ميكرونات .

ولا يخرج الحيوان المنوى عن كونه خلية واحدة ، مركبة هذا التركيب الخاص وهو كائن حى ، سريع الحركة إذ تبلغ سرعته نحو نصف ملليمتر في الثانية الواحدة ، وتبلغ سرعة الحيوان أقصاها عند خروجه من الخلفية مباشرة ، ويحرك هذا الحيوان بواسطة حركة ذبذبة التنبائية ، وروى الأستاذ (الثرمان) أن القنى اغفوظ من الضوء والبرد تعيش حيواناته مدة 48 ساعة ووجدتها الدكتور (كوبر) بعد 84 ساعة في منى حفظ في زجاجة عادية غير محكمة ، ويروى (فريزر) عن (زيفل) أنها تعيش أكثر من ثلاثة أسابيع ويقول إن عدد الحيوانات المنوية يبلغ في الدقيقة الواحدة نحو ٢٠٠ مليون حيوان .

كيف تنفصا المنطفة ؟

وقبل أن أشرح كيف تنفصا الحيوانات المنوية أراني مضطرا إلى ذكر تركيب الخلفية حتى يسهل فهم ما أرمى إليه .

١ - تركيب الخلفية :

فالخلفية هي غدة يضاربة الشكل تزن الواحدة منها نحو ثلاثة أرباع الأونية وهي محاطة بحافطة ليفية مبنية تسمى الصفات الأبيض للخلفية وهي معطاة ببطانة مصابية محكمة من الطبقة الغدية للخلفية وهذه الطبقة تبرز منها زوائد أو استغلالات ليفية تقسم الخلفية إلى فصوص مخروطية غير منتظمة الشكل .

يتند الصفات من الخلف إلى داخل الغدة مكونا كتلة من النسيج اللغنى تسمى جديوم الخلفية .

بالخلايا الأيبكومية ثل هذه الطبقة من الخلايا طبقة ذات خلايا أكبر حجماً لكل منها نواة في دور الانقسام وتسمى خلايا هذه الطبقة الجراثيم المنوية ، وتلى هذه الطبقة طبقة الخلايا المنوية ذات النواة الكروية البسيطة الشكل ، ونشأ هدف هذه الخلايا ذبول الحيوانات المنوية في دور التكوين ، تستطيل خلايا هذه الطبقة بعد ذلك وتأخذ نواة كل خلية في الاتجاه إلى أحد طرفي الخلية المتجهة نحو محيط دائرة القنن وبأخذ ذيلها في القنن كذلك ، وتكون نواة كل خلية رأس الحيوان المنوي وتجتمع الحيوانات المنوية في مجموعات ورؤوسها متخللة الطبقة التي تليها من الخارج ، وترها متعلقة بخلايا خاصة لتغذيتها ، وكلما زاد الحيوان المنوي في القنن كلما برز إلى الداخل وغدا ذيله طليقا في تخويف القنن ، وفي الوقت الذي تكون فيه مجموعة من الحيوانات المنوية في دور التكوين نجد مجموعة أخرى من الخلايا الأيبكومية تنقسم لتكوين جراثيم منوية .

وعندما تنمى الحيوانات المنوية التامة القنن تأخذ الجراثيم المنوية في الانقسام لتكون خلايا منوية جديدة ، وهذه تنمو لتكون حيوانات منوية وهكذا دوليك .

ج - نشوء النطفة :

- ويمكن تلخيص الأدوار التي تمر حتى نشأ النطفة فيما يلي :
- ١ - تنقسم الخلية الأيبكومية إلى خليتين إحداهما صغيرة تظل في مكانها والأخرى كبيرة تنمو وتحتل مكانها في الطبقة الداخلية الثانية لتكون جراثيم منوية أولى .
 - ٢ - تنقسم الجراثيم المنوية الأولى إلى جراثيم منوية .
 - ٣ - ثم تنقسم الجراثيم المنوية الثانية لتكون خليتين منويتين تحتوي نواة كل منها على نصف عدد الكروموزومات الأصلية .
 - ٤ - ثم تستطيل الخلايا المنوية لتكون حيوانات منوية ، وفي هذه الحالة يظهر تجمع الخلايا التي تنمو من الخلايا الأيبكومية ، وتستطيل هذه الأجزاء لتساعد الحيوانات المنوية في الوصول إلى تخويف القنن حيث تكون حرة طرية .
- وجدير بنا أن نذكر هنا أن جميع هذه الأطوار يمكن رؤيتها تحت المجهر في مقطع واحد من خصية واحدة .

ويمكن تمييزه ثمة التمييز ، ولا أرى داعياً لذكر المخططات التي تمر بالخلية لتكون حيوان المنوي ثم القنن .

المنى وتركيبه :

وأطلق المفسرون لفظ المنى على النطفة ، ولكني أرى أن القرآن الكريم فرق بين النطفة (الحيوان المنوي) والمنى قبل أن يكشف المحجر بأكثر من أحد عشر قرناً وهو قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يُحِشِّبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يَبْرُكَ سَدًى أَلَمْ يَكُنْ نَظْفَةً مِنْ مَنًى مَبْنًى ﴾ [سورة القيامة] .

والمنى هو ذلك السائل اللزج الذي يسبح فيه الحيوان المنوي وهو كمطبوخ النشا ، وله رائحة خاصة به ، ويرى (لاندوا) أن المنى الطبيعي يحتوي على ٨٢٪ من ماء وزلال المصل وزلالات قلبية وبيوكايت وكيستين وكوليسترين شحم فسفوري وقلويات وسلفات وكربونات وكلوريدات .

ويبلغ مقدار المنى في الحالة العادية من درهم إلى درهمين تقريبا ، وهو عبارة عن إفراز الخصيتين والقناة النافلة للمننى التي تبتدىء من البربخ والموصلات المنوية والبروستاتا وغدة كوبر ويسمى إفرازها (الملى) وإفراز مخاطي من غشاء مجرى البول ، ويحتوى المنى بخالب ذلك على بلورات عديدة اللون ذات أربعة جوانب ، وترى في المنى الطبيعي والحيوانات التي لا تزال حية ، وتوجد فيه كذلك بلورات متوازية الاضلاع ترى في المنى بعد خروجه بزمان طويل من يومين إلى أربعة أيام .

ويرى (سريز) أنها أجسام فسفافية مع فاعلة من المركبات العضوية .

يصل إفراز الخصية ومعه الحيوانات المنوية من القنن المنوية إلى القنوات المستقيمة إلى الشبكة المحصورة إلى القنوات الخارجية إلى البربخ ومن البربخ يخرج الافراز إلى القناة النافلة للمننى فتصعد إلى الصفن ثم إلى الحوض العظمى وتصب القناة النافلة إلى الحويصلة المنوية أسفل المثانة ولكل منها انقباضات خاصة لدفع السائل المنوى عند الوطء .

والبروستاتا وهي غدة تقع أسفل المثانة تفرز سائلا لزجا لتخفيف الافراز المخزون في الحويصلتين المنويتين ولتشجيع الحيوانات المنوية على الحركة ، وتصب فتحات الحويصلتين والبروستاتا في المهبة الخلفية لجرى البول .

ومكثدا ترى وجوب التفرة بين الحيوان الموى والسائل الموى .
وقوله تعالى : ﴿ ألم يك نطفة من منى تمى ﴾ [القيامة : ٣٧] بيان ظاهر لذلك ،
إذ أن النطفة حسب الآية الكريمة هي قطعا خلاف المنى ، وهي كقولك : أخرجت
السكة من البحر ، والسكة لا علاقة لها به إلا أنها تسبح فيه كما تسبح الحيوانات
النبوية في السائل الموى .

ومثل ذلك قوله تعالى : ﴿ وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى . من نطفة إذا
تمى ﴾ [النجم : ٤٥ - ٤٦] أى تخرج مع المنى ، ولعله من البداهة بعدما قدما أن
الإنسان لا يتخلق من السائل الذى بيناه ، بل يتخلق من الحيوان الموى الذى سماه تعالى
نطفة ، قال تعالى : ﴿ قل الإنسان ما أكفره . من أى شيء خلقه . من نطفة خلقه
فقدروه ﴾ [عبس : ١٧ - ١٩] .

وأما الآية الكريمة التى تشمل السائل الموى والحيوانات النبوية جميعا ، فهي قوله
تعالى : ﴿ أفأرأيهم ما تمنون . أنهم يخفونهم أم نحن المخلقون ﴾ [الواقعة : ٥٨ - ٥٩]
و (ما) للجناد ذكرها الله تعالى وأطلقها على المنى والحيوانات النبوية بتغليب السائل
لأنه هو الظاهر : ﴿ قل الله خالق كل شيء وهو الواحد القهار ﴾ [الرعد : ١٦] .
قوله تعالى : ﴿ إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج ﴾ [الإنسان : ٢] .

وأما قوله تعالى : ﴿ إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج ﴾ فليس معناه كما قال
المفسرون ، أمشاج ، أى من ماء الرجل وماء المرأة المختلطين المتزوجين ، أو كما قال
صاحب القاموس المحيط : أو نطفة أمشاج مختلطة بماء المرأة ودمها ، بل إن معنى قوله
تعالى : ﴿ من نطفة أمشاج ﴾ أى أن النطفة ولو أنها بسيطة الشكل الظاهرى ، لكنها
مركبة تركيباً معكناً كما بينا آنفاً ، وتحتوى على عناصر ومركبات وأمخاط خاصة هي
التي سماها الله تعالى : ﴿ أمشاج ﴾ وأرائى هنا مضطراً أن أضرب مثلاً بذلك فأقول :
إن المادة الأساسية في الخلقة وهي السيولازم تحتوى على بروتينات (زلايات)
وكربوهيدرات (نشويات وسكاكر) وجليكوجين ودهن وليبيد ، وتحتوى بجانب ذلك
على أملاح غير عضوية وتوجد هذه العناصر مع الماء ، ويبلغ مقدار الماء في مركبات
الخلقة من ٥٠ - ٩٠ في المائة .

والخلقة ذات جدار ونواة ونبوية ، ويوجد فيها بجانب ذلك سترولول والجسم المركزى

للخلية وجهاز جولجى ولتتكم من أهم هذه المحتويات أو الأمخاط باختصار حتى
تسهل معرفتها :

السترولول : هذا الجسم تحتوى عليه كل خلية قادرة على الانقسام الميتوسى
الخاص بخياط الخلية ، ويقع بجانب نواة الخلية الدائرية أو عديدة الزوايا ، ويقع بين
النواة وجدار الخلية في الخلايا العمودية .

وينقسم هذا الجسم إلى قسمين عندما تبدأ الخلية في الانقسام وينتج كل قسم
منها إلى أحد خطيها .

ويخرج عدد من الخيوط الدقيقة من كل قسم ، ويمتد نحو خط استواء النواة
المقسمة حيث يقابل الخيوط الأخرى المنبثقة من الجزء المقابل فيكونان مثلاً عددهم
اللون تتصل به الكروموزومات المنقسمة للنواة والكروموزومات هي الأجسام الملونة
في النواة .

ويختلف السيولازم المحيط بالستريول عن غيره ، ويسمى الجسم المركزى
للخلية .

ولم يشاهد الستريول في خلايا النباتات العليا ولكنها تحتوى على الجسم المركزى
للخلية .

الميتوكوندريا :

وهي أجسام تشبه القضبان الصغيرة أو الخيوط ، وتوجد في جميع الخلايا النباتية
والحيوانية والأجسام الخيطية إذ منها تنقسم وتحدد ثانياً .

وتكون هذه الأجسام مجموعات في الخلايا المستطيلة العمودية . تقع كل منها
في أحد جوانب الخلية وتتركب هذه الأجسام من مواد بروتينية وليبيد وجلوتاتيون ،
وتلعب هذه الأجسام دوراً كبيراً في تكوين بعض المركبات والمواد الخاصة في الخلية
كالخامائر التى توجد في سيولازم كثير من الخلايا .

جهاز جولجى : هذا الجهاز لا يمكن تمييزه في الخلية الحية ولكنه يظهر
في الخلايا المصبوغة المثبتة وتجدد في الخلايا الدائرية والعديدة الخلايا محيطاً بالنواة
والخلايا المستطيلة والمكعبة تجده في أحد الجوانب غالباً .

ووجد (تاج كعب عام ١٩٢٨) أن عدد الكروموزومات في الخلية الجينية الأدمية ٤٨ تختلف في الطول من ١ - ٨ ميكروبات وتختلف في السمك من نصف ميكروم إلى ميكروم واحد .

ووجدت الكروموزومات أنها مكونة من حبيبات صغيرة تسمى كرومومير مرتبة في صفوف متنى متنى أو فرادى وتجتمع الكروموزومات في النواة لتكون كتلة صلبة من الكروماتين تحمل النوية في حال وجودها .

ويمكن رؤية ذلك في نواة الحيوان النوى حين يتفرق غشاء البويضة مملا خلية عادية

الشكل .

ومن القطوع به علميا أن الكروموزومات في الحيوان النوى والبويضة هي التي تحمل صفات المورث وتنقلها إلى الذرية .

وتجد كل خلية من هذين تحمل نصف عدد الكروموزومات الأصلية ، فذلك تجدها في الأصل ٢٤ وعندما يحصل تلقح البويضة لتكوين الجنين تجد في هذا الأخير العدد الأصل للكروموزومات .

وكلما انقسمت الخلية الملقحة بعد ذلك أعطت كل خلية ناتجة من الانقسام عدد الكروموزومات الأصلية حاملة صفات الوالدين لكل خلية من خلايا جسم النشء

الناجح .

وتتكون الكروموزومات من حبيبات غير منظورة بالمجهر هي الحوامل للصفات التي تنقل إلى النسل والتي تتوقف عليها الوراثة .

النوية :

والنوية جسم مستدير الشكل يوجد واحد أو اثنان منه في الخلية الواحدة ، وهي نوعان يمكن تمييزهما بطريقتين الأصابع ، فأحدها يصغ بالأصابع القاعدية ويستهلك هذا النوع في تكوين بعض مادة الكروموزومات أثناء انقسام الخلية ، والنوع الآخر يأخذ الأصابع الحامضية ، ويحتفى هذا النوع كذلك أثناء انقسام الخلية ، ولكنه لا يدخل في الكروموزومات ، ويسمى النوع كيريزوم ، والثاني يسمى بلازموزوم .

وليس هذا الجهاز صلبا ولكنه غروي القوام وقد نجده في بعض الحالات على شكل حبيبات صغيرة مقشرة ويتركب هذا الجهاز كالميتوكوندريا من بروتين وليبيد وتختص عملهما ببناء الخلية ، ويتغيران شكلا ووضعا في الخلايا التي تفرز إفرازات خاصة ، ويرى (ليم وما) أن مادة الميتاكوندريا تستهلك في تكوين إفرازات خاصة تعطى زيجوجين وتطلق الليبيد حرا في الخلية .

النواة :

والنواة تحاط بغشاء خاص وهي حويصلية الشكل ومحتويات هذه الحويصلة تبدو كسائل متماثل يسمى كاريوبلازم ، وتحتوى النواة على جسم صغير يسمى بالنوية وفي نواة الخلية يمكن رؤية شبكة متماسكة متصلة الأطراف .

وتقع النوية عند ملتقى الخيوط الشبكية فتشبهها مكانها ولكنها تغدو حرة طليقة في الخلايا التي ليست فيها هذه الشبكة .

والنواة عمل كبير في الخلية خاص بتغذيتها وإفرازها وسائر وظائفها الكيميائية ، وفي النواة مادة خاصة تسمى كروماتين وهي الجزء المتخصب (الميال للون) في الخلية ويحتوى كروماتين النواة على الحامض النووي المتحد بالبروتينات بنسب خاصة مكونا النيوكليين والنيو كليوبروتين ، وتحتوى النواة كذلك على الليبيد وكمية من الكلسيوم (الجير) .

وتوجد في النواة كذلك شبكة دقيقة تسمى شبكة الليبت ، يقال أنها لا توجد إلا في الخلية الميتة ، ولا تجد الكروماتين في بعض الخلايا أثناء راحتها على شكل شبكة بل تجده على شكل قضبان صغيرة أو خيوط على شكل شلة أو خصلة تشاهد غالبا عند ابتداء انقسام النواة .

تسمى هذه الخصلة عند اتصالها ببعضها كروموزومات ويمكن عددها في الخلية بسهولة ، ويختلف عددها في الحيوان عنه في النبات ، والعدد كذلك خاص بالنسبة لكل خلية نوع من الأنواع .

ويبلغ عدد خيوط الكروموزومات في الإنسان ٤٨ (أي ٢٤ زوج منها) في كل خلية . وفي الخلية المذكورة يوجد كروموزوم واحد من هذه غير زوجي يسمى كروموزوم الجنس ويقول البعض أن كروموزوم الجنس يوجد كذلك مثلي .

الرحم

قال تعالى : ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نَظْفَةً فِي قرارٍ مَكِينٍ ﴾ والقرار : المستقر ، والمراد الرحم ، وسترى فيما على كيف سمي الله تعالى الرحم بالقرار المكين ، وكيف جعله موطناً للجنين ، وكيف هيأه لهذا الاستيطان ؟ فلقد شاء الله تعالى أن يجعل من الذكر والأنثى وسيلة لإيجاد بنى آدم استبقاءً للنوع وشاء سبحانه أن يمر الإنسان بطور خاص من أطوار حياته الدنيا يكون فيه جنينا ينمو في مكان هادئ آمن يتناسب وحالته الثانية ، فيجعل للأنثى رحماً وزوده بكل وسائل الراحة والأطمئنان ، ووضع في أحسن مكانٍّ وأحاطه بأركان عظيمة وأربطة مفصلية مينة حتى يصبح بعيداً عن جميع المؤثرات الخارجية .

والرحم يقع خلف المثانة وأمام المستقيم وهو كيس عضلي كثري الشكل يبلغ طوله سبعة سنتيمترات وعرضه خمسة سنتيمترات وسمكه نحو سنتيمترين ونصف .

وينقسم الرحم إلى ثلاثة أقسام ، فأما الأول فيسمى بالقاع وهو الجزء العلوى منه ، وينتهج نحو الأمام ، والثاني وهو جسم الرحم وله سطح محدب خاصة من الناحية الخلفية وهو ضيق من الجهة السفلية حيث يتصل بالجزء الثالث وهو العنق .

ويتكون جسم الرحم من نسيج عضلي غير إرادي سميك يمكن تقسيمه إلى ثلاثة طبقات :

فالطبقتان الخارجية والداخلية رقيقتان وبعض أليافها مرتبة طولياً والبعض الآخر دائرياً .

والطبقة الوسطى سمكة ، وأليافها تأخذ اتجاهات مختلفة ، وتحتوى هذه الطبقة على أكبر الأوعية الدموية ويمتد بعض ألياف الطبقة الداخلية إلى داخل أجزاء الغشاء المخاطي المبطن للرحم .

ويتكون هذا الأخير من نسيج خام يحتوي على عدد كبير من الخلايا ذات الشكل الغزلي ، ويخده من الداخل في بعض الأجزاء بشرة هدية ، ويحتوى الغشاء المخاطي على

ويمكن رؤية البوية وهي تتحرك في الحلية الحية ، وتحتوى البويثان على حبيبات خاصة تسمى نيو كليين ولا تختفى أثناء الانقسام .

من هذا يتضح معنى قوله تعالى : ﴿ إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نَظْفَةٍ أَمْشَاجٍ ﴾ [الإنسان : ٢] أى من نظفة مركبة من الأخلاط التى ذكرناها ، وبجانب ذلك فإن (أمشاج) صفة للنظفة ، وقد قدمنا أن النظفة هى الحيوان النوى وأثبتنا ذلك آنفاً ، فلا دليل أو سند علمي إذاً للذكر ماء المرأة أو بويضتها في هذا الموضع من الآلة الكريمة .

عدد إسطوانية طويلة بسيطة الشكل تتخذ شكلا منحنيًا معرّحًا في مرزورها وسط هذا الغشاء وله إفرز قلوي خاص .

ويغطي الرحم من الخارج الغشاء البريتوني ، وهذا يمتد من الحلف حول القاع والجسم والجزء العنقي المقل على المهبل حتى يصل إلى التجويف المهبل الحلقى .

وأما عنق الرحم فيبلغ طوله نحو سنتيمترين ونصف ، وجزؤه الأسفل بارز في المهبل .

والعنق الظاهر مغطى كذلك بغشاء مخاطي وتفتح فيه قنوات كثيرة أكثر تعقيداً من عدد الرحم : نغدها من الداخل خلايا عمودية تفرز مادة مخاطية .

ويقرب العنق تصبح البصرة المخاطية عديمة الأهداب ، وتمتد طبقاتها عند حافته .

والغشاء المخاطي يحتوي على عدد كبير من الأوعية الدموية الكبيرة والأوعية الليمفاوية .

والرحم هو المكان المد لحفظ الجنين ، وهو مهبط لجميع وسائل التغذية ، ومخصص تخصيباً محكماً ، ولقد جعل الله تعالى لحفظه صندوقاً عظيماً متيناً هو الحوض .

والحوض عبارة عن حزام عظيم يقع معترضا في نهاية العمود الفقري محمولا على عظمى الفخذين ويتركب من أربعة عظام ، هي العظمين اللذان لا اسم لهما والفخذ والعصعص ويتركب كل من العظمين اللذين لا اسم لهما من الحرقفة والورك والجانبة والعظم الأول أكبرها ويقع على الجانبين ، والثاني يتلو الحرقفة في الحجم ويؤلف الجزء الحلقى من أرضية الحوض ، والعظم الثالث أصغرهما ويكون مقدمة الحوض .

والعظام الأربعة الأولى تتصل ببعضها اتصالاً محكماً ، فكل من العظمين اللذين لا اسم لهما يتصل عند المفاصل الفخذية الحرقفية ، ويتصل الفخذ بآخر عظمة قطنية عند المفصل الفخذي القطني ، ويتصل بالعظمين اللذين لا اسم لهما عند المفاصل الفخذية الحرقفية وبالعصعص عند المفصل الفخذي العصعص ، والعصعص لا يتصل إلا بالفخذ .

والمفاصل المذكورة صلبة عادة ، ولكن من حكمة الله تعالى أنها عند أواخر الحمل تلين أرضيتها ، فتسمح بحركات بسيطة لها أهمية خاصة لاستئناسها بها ، ولا يستغنى عنها وقت الولادة ، فالفخذ يدور إلى الأمام والحلف ، كما لو كان محوره هو المفصل الفخذي

الحلقى وعند الولادة عند نزول رأس الجنين يسقط الأخير على أعلى الفخذ فيدفعه الحلق فيقلا ، وتجرد نزول الرأس يرجع أعلى الفخذ إلى مكانه الأول ، وبعد ذلك يتحرك إلى الأمام قليلا وتسحب رأس الجنين القطع السفلى عند نزولها إلى الخلف ، ويستطيع العصعص هو الآخر التحرك إلى الخلف على المفصل العجزي العصعصي وبذلك تكبر دائرة الخروج الأمامية الحلقية بما يقرب من ثلاثة أرباع بوصة ، هذا بجانب ما يستطيعه عظم الحانة من الانفصال عند متفاتها .

ولا يخفى أن المفاصل تربطها جميعا أربطة خاصة متينة التركيب محكمة الوضع ، تجعل من عظام الحوض المختلفة صندوقاً محكماً ذا أسقف أرضية وجدران ، ولا يفتوى أن أذكر أن هنالك الرباط العجزي الوركى الذى هو عبارة عن غشاء ليفى مفرطح يتم به التجويف الحوضى من كلا الجانبين .

وهكذا جهز سبحانه وتعالى رحم المرأة بكافة أسباب الراحة والوقاية وأعدده لحفظ الجنين من أول نشأته من نطفة إلى أن يلفظه الرحم في تاسع شهر قمرى من ابتداء تكوينه ، ولو شئت أن أذكر الوسائل التى أعددتها سبحانه وتعالى لتنفيذة الجنين وحفظ حياته ، لطال الشرح ، ولكنى أظن أننى بما ذكرت أعطيت القارئ فكرة عامة وافية بصورة دقيقة مصغرة لما عناه الخالق الكريم بقوله : ﴿ في قرار مكين ﴾ (١) قال تعالى : ﴿ هو أعلم بكم إذ أنشأكم من الأرض وإذ أنتم أجنة في بطون أمهاتكم ﴾ [النجم : ٣٢] .

(١) وعلى يكون القرار مكاناً إلا بالأمس والندم والشفاء وكل ما هو من قوام الحياة حتى يسبح الأهل لستى سبحانه الله العظيم .

طور العلقه

قال تعالى : ﴿ ثُمَّ خَلَقْنَا النَّفْثَةَ عَلَقَةً ﴾ وأريد أن أقف قليلا بجانب (ثم) لثرى مثلا من بلاغة القرآن الكريم ودقة بيانه في وضعه هذا الحرف موضعاً يؤدي به المعنى الطبي الصحيح الذي تشير إليه الآية الكريمة ، فإن (ثم) هي حرف العطف الوحيد الذي يستطيع أن يؤدي معنى هذا الطور من الانتقال في تكوين الإنسان ، وهي تدل على الترتيب مع التراخي ، بخلاف الواو مثلا وبخلاف الفاء في قوله : ﴿ فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مَضْغَةً ﴾ كما سيأتي ، ولعل القارئ اللبيب قد فهم سر استعمال (ثم) في خلق الإنسان من نطفة بعد خلقه من الطين في قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نَظْفَةً ﴾ لطول الفترة ما بين طور الخلق من طين وخلق الإنسان من نطفة .. تأمل قوله تعالى : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ ﴾ [الروم : ٢٠] وكذلك ذكر الله تعالى (ثم) بعد النطفة لطول الفترة بين الإنسان وهو نطفة في خصية الرجل حتى يصبح علقه في رحم المرأة كما سيأتي .

والعلقه لفظ دقيق بين ذلك الطور الذي يمر به الإنسان عند تلقيح الحيوان النوى لبويضة الأنثى ، وليست العلقه دما متجمداً كما قال جميع السادة المفسرين ، قال المفسرون ذلك ونحو نحوهم المترجمون أمثال (سافاري) و (جورج سبيل) و (رودولف وغيرهم .

وكذلك فعل علماء اللغة ، فقد جاء في المصباح المنير عند الكلام عن العلقه قوله : والعلقه المني يتقل بعد طوره فيصير دما غليظا متجمداً ثم تنتقل طورا آخر فيصير لحما وهو المضغة . والعلقه ليست دما متجمداً وما سميت علقه إلا للعلاقه بين النطفه وبويضة الأنثى عند التلقيح .

يقال في اللغة : علقف ظفري بالشئ ، بالألف ، أنشبه وعلقف الشئ بغيره ، وأعلقفه بالتشديد والألف متعلق وعلق الوحش بالحيالة علوقا تعوق ومنه قيل : علق

الخصم خصمه وتعلق به وعلق الشوك بالثوب علقا وتعلق به إذا أنشب به واستمسك [المصباح المنير] .

وهكذا يفعل الحيوان النوى مع بويضة الأنثى ، فحيث يتدفق إلى جهاز المرأة التناسلي يقابل البويضة النائمة النمو فيعلق وينشب بها ويستمسك ، وهذا هو تلقيح الرجل للمرأة أو إيصال الحيوان النوى للرجل إلى بويضة الأنثى ليعلق بها وليصير علقه ، ولذلك يقال في اللغة : علقف المرأة أي حبلت [القاموس المحيط] .

(١) بويضة الأنثى :

الإشارة إلى البويضة في القرآن : ولا يحسب أحد أن الدين الإسلامي لم يذكر البويضة ، وما كان القرآن ليهملها ، وهي شرط أساسي في تكوين الجنين ، ولذلك ذكرها في الموضع المناسب لها في طور العلقه ، وفي ذلك دليل كاف على أن للمرأة نصيباً في تكوين الجنين وأن لها بويضة تقابل الحيوان النوى للرجل .

(ب) تركيب المبيض :

وبويضة الأنثى عبارة عن خلية كروية الشكل يبلغ قطرها نحو الاثنتين من العشرة من المليمتر ، وتنشأ في مبيض المرأة وتفرز منه .

وأرأى قبل أن أشرح البويضة مضطراً إلى ذكر شيء عن التفسير الدقيق لمبيض المرأة حتى تسهل معرفة أصل البويضة معرفة كاملة .

فالمبيض عضو صغير صلب يتكون معظمه من نسيج أساسي ليفي وخلايا مغزلية وتنتشر في النسيج الأساسي حويصلات صغيرة بأحجام مختلفة أصغرها يقع بجانب حافة المبيض ويلبها الأكبر في الحجم ، ولكنها كلما كبرت اتجهت نحو الحافة ثانياً .

هذه الحويصلات الصغيرة تسمى حويصلات جراف ، ولكل منها غلاف خارجي تحت الأوعية الدموية ، يتكون من الخارج من نسيج خام مستمد من النسيج الأساسي ، وفيه من الداخل طبقة تحتوي على خلايا كبيرة الحجم .

وتحتوي كل حويصلة على بويضة (أو بويضتين أو أكثر) وبشرة مخاطية ، وفي الحويصلات الصغرى نجد البويضة صغيرة الحجم ، والبشرة المخاطية مكونة من طبقة واحدة ذات خلايا مسطحة ، فإذا كبرت الحويصلة عن ذلك غدت البشرة المخاطية

من طفتين من الخلايا العمودية الشكل ، وتجد في الحويصلات الأكبر طبقات متعددة من الخلايا المذكورة ، ويتبدى تجمع سائل خاص بين الطبقات في مكان واحد .
 ويزيد مقدار السائل في الحويصلات الكبيرة فكثير في الحجم شيئا فشيئا ، وتزيد صلابتها ويتنى الأمر ببرزوها من البيض وانفجارها وخروج السائل الحويصلي والبويضة منها . ويعبرى انقباض الحويصلة وانفجارها إلى وجود عضلات غير إرادية في جدار حويصلات جراف ، وأما الحويصلة الفارغة فلتضم في البيض وتسمى بعد ذلك بالجسم الأصغر .

تركيب البويضة :

والبويضة عبارة عن خلية كروية الشكل ، يبلغ قطرها نحو الاثنين من العشرة من المليمتر وتقع البويضة في الغالب بعيدة عن مركز حويصلة جراف ، وتحاط كل بويضة تامة النمو كما هو الحال في حويصلات جراف الكبرى بجدار شفاف سبيك يحفظ من الداخل مادة السيترولازم الخاصة بالبويضة وتحتوى هذه المادة على بضعة محتويات خاصة كحبيبات دهنية وحبيبات مادة البيض الصفراء .

وتوجد في السيترولازم بجانب ذلك نواة البويضة وتسمى حويصلة النمو ، وهي مستديرة الشكل كبيرة الحجم نسبيا ، تحتوي على نوية تسمى نقطة النمو .

وتتخلل جدار البويضة فتحات دقيقة تمر فيها بعض خيوط مستمدة من خلايا البشرة المخاطية التي تجاورها مباشرة .

(د) قناة فالوب :

وهناك قناة تتصل الرحم بالمبيض تسمى قناة فالوب ، وتفتح بقرب المبيض وتتصل به بواسطة بروز فيها ، فيصل واحد من هذه البروز أو الثان منها بالمبيض مباشرة اتصالا خاصا . ويحتوى جهاز الأنثى على قناتين تنتهى كل منها في الرحم وتفتح في الزاوية العليا منه .

وقناة فالوب مبطنة من الداخل بغشاء مخاطي تحت الأوعية المعوية ، وهو الغشاء معطى بطبقة من الخلايا ذات الأهداب ، وتخفى هذه الأهداب بعد سن اليأس وهذه الطبقة فيها ثنيات طويلة عديدة يتخللها كثير من الانخفاضات .

ويغطى القناة من الخارج غشاء متصل عليه من الداخل طبقة من ألياف العضلات غير الإرادية تليها ألياف عضلية دائرية الشكل .

تفليح البويضة :

التفليح هو علق الحيوان المنوى ببويضة الأنثى التامة النمو ، ويتم هذا التفليح غالبا في الجزء الأعلى من قناة فالوب حيث يخترق الحيوان غشاء البويضة الخارجى قاطعا هذا الغشاء بواسطة حافته الحادة التي في قنصوته .

وفي أثناء ذلك تجد البويضة كذلك تسمى إلى الحيوان ويتصل هذا بروز جزء قمعى الشكل من مادة البويضة داخل الغشاء الخارجى ، ويسمى هذا البروز القمعى (مخروط الحاذية) .

ومكان هذا البروز هو الجزء الذى يقابل رأس الحيوان عند دخوله مباشرة ، يستمسك بعد ذلك الرأس بهذا البروز ويدخل فيه ، وربما دخل جزء من الجسم كذلك ، وينفصل باقى الحيوان مع الذيل والمؤخرة ، ولا تدخل هذه الأشياء في التفليح وقد تمتصها البويضة وتهضمها فتلاشى فيها .

عند ذلك يتحول الجزء الذى يدخل من الحيوان في البويضة إلى نواة تسمى (النواة الأولية المذكورة) وتكون هذه النواة مصحوبة بمخروطها ومستروزومها وعندما يصبح تكوين النواة ظاهرا تماما تحف حولها حبيبات السيترولازم المحيطة بها . وتركيب حولها فظهر كأنها خيوط من الأشعة مبعثة منها وكأن للنواة تأثيرا كليا عليها ، وبعد ذلك تأخذ النواة في الاتجاه إلى داخل البويضة ، وعندما تصل النواة الأولية المذكورة عند النواة الأولية المؤنثة يبدو على الثانية نشاط غير عادى ، وتظهر عليها تغيرات خاصة وتأخذ في التحرك لتلتقى بالنواة المذكورة .

وبعد ذلك تقف كل نواة في مقابل النواة الثانية ، ثم يندمجان جميعا ليكونان نواة واحدة هي (النواة الأولى للانقسام) وهذه النواة تصحبها مستروزومان يقف كل منهما في مواجهة الآخر على الخط الاستوائى للنواة المحصورة بينهما .

وهذان المستروزومان ناشتان من مستروزوم النواة المذكورة الأولى الذى ينقسم عندما تندمج النواتان الأوتان .

توضيح معنى العلة :

قال تعالى : ﴿ هو الذى خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم يخرجكم طلقا ثم يبليهم أشدكم ثم لئكونوا شيوخا ومنكم من يتولى من قبل ويبليهم أجلا مسمى ولعلكم تعقلون ﴾ [غافر : ٦٧] .

وهذه الآية الكريمة تبين لنا أهم هذه الأطوار فى خلق الإنسان ، و (ثم) فى هذه الآية الكريمة توحى إلينا معنى دقيقا يؤيد ما نرمى إليه من تفسير النطفة والعلقه ، فلقد ذكر الله تعالى التراب وهو أصل الشئ ، ثم ذكر طورا يعبد كثيرا من وقت الخلق من الطين وهو طور النطفة فى الرجل ، ثم ذكر العلقه وهو الطور الذى لا يتحقق إلا عندما يقرب الذكر الأنثى .

ولم يذكر الله تعالى المصنعة هنا لأنها تنشأ بعد العلقه مباشرة فى الرحم كما سيأتى ، فلا نذكر فيها (ثم) بل نذكر الفاء التى تدل على التتبع بغير مهمله كقوله تعالى : ﴿ فخلقنا العلقه مصنعة فخلقنا المصنعة عظاما فكسونا العظام لحما ﴾ [المؤمنون : ١٤] .

واستعمل الله تعالى (ثم) بعد هذه الفقرة من الآية فى الفقرة التالية لما فقال : ﴿ ثم أنشأناه خلقا آخر ﴾ [المؤمنون : ١٤] وهى كقوله : ﴿ ثم يخرجكم طفلا ﴾ وذكر (ثم) هنا ، لأن الخروج هو الانفصال عن الرحم وحياة الجنين فى الرحم مختلفة كل الاختلاف لحياته فى الخارج ، وهو طور هام من أطوار الإنسان .

وأما قوله : ﴿ ثم لبثوا أشدكم ﴾ فلأن طور البلوغ مخالف كل المخالفة لطور الطفولة ، ومثله قوله : ﴿ ثم لئكونوا شيوخا ﴾ فحالة الشباب غير حالة الشيخ وهكذا ذكر الله تعالى أهم الأطوار الظاهرة فى خلق الإنسان .

ولو كان طور النطفة فى الرحم لقال لخلقنا من شأنه : ﴿ ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين فخلقنا النطفة علقة ﴾ ولكنه قال : ﴿ ثم خلقنا النطفة علقة ﴾ ليبين أن النطفة فى مكان آخر غير الرحم ... على الأقل مراحليا .

وإن هنالك فترة كبيرة تمر قبل أن يصل الحيوان المنوى إلى بويضة الأنثى ليلقحها . والطور الذى يلحق فيه الذكر الأنثى هو طور الحمل ، وهو طور كبير الأهمية لا يمكن أن يغفله الدين ولذلك قال تعالى : ﴿ ثم من علقة ﴾ وقال : ﴿ ثم خلقنا النطفة

علقه ﴾ أى أن الحيوان المنوى علق بالبويضة واستمسك بها ، فعلفت المرأة أى حبلت كما قدما .

وقوله تعالى : ﴿ خلق الإنسان من علق ﴾ يؤيد ذلك أيضا لأن الإنسان يتخلق من اتحاد الحيوان المنوى مع بويضة الأنثى أى يتخلق من البويضة الملقحة .

قال تعالى : ﴿ اقرأ باسم ربك الذى خلق . خلق الإنسان من علق ﴾ [العلق : ١ - ٢] أى خلق الإنسان عن طريق الزواج بين الرجل والمرأة ، وهو أهم طور فى حياة الإنسان ، فاقضى ذلك أن يقتصر الله تعالى على ذكره فى هذا المقام ، وهو أبلغ تعبيراً فى هذا الموضع ، وأكثر تبيانا لخلق الإنسان بطريق التماسك .

ويؤيد ما ذهبنا إليه كذلك قوله تعالى : ﴿ والله خلقكم من تراب ثم من نطفة ويؤيد ما جعلكم أزواجا ﴾ [فاطر : ١١] أى زواجكم ، وطور التزاوج هو طور العلقه لأن التزاوج هو علق الحيوان المنوى بالبويضة ، تأمل قوله تعالى : ﴿ ثم جعلكم أزواجا وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه ﴾ [فاطر : ١١] فهنا يتضح لك معنى الزواج ، وهو الحمل ، وهو قوله تعالى : ﴿ وما تحمل من أنثى ﴾ والحمل هو التلقيح وهو طور العلقه .

بل تأمل قوله تعالى : ﴿ هو الذى خلقكم من تراب ثم من نطفة ﴾ علقه ﴾ وقارن بين هذه الآية والآية المشار إليها وهى : ﴿ والله خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم جعلكم أزواجا ﴾ ألا ترى أنك تستطيع أن تضع ﴿ ثم من علقه ﴾ مكان ﴿ ثم جعلكم أزواجا ﴾ من غير أن يتخلل المعنى أو يضطرب الكلام .

وأما قوله تعالى : ﴿ أحسب الإنسان أن يترك سدى . ألم يك نطفة من منى يمنى . ثم كان علقه فخلق فسوى . فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى ﴾ [القيامة : ٣٦ - ٣٩] فيست كذلك ما ذهبنا إليه .

فإن قوله تعالى : ﴿ ثم كان علقه ﴾ يدل على أن النطفة تكون فى الرجل فى خصيته - كما قدما - ولا ينشأ منها الجنين مطلقا إلا إذا وقع اتصال بين الرجل والمرأة ، وتصادف حصول التلقيح فعلا ، هذا ما نرمى إليه (ثم) فى هذا الموضع ، وعند الفرق جليا بين استعمال هذا الحرف هنا واستعمال الفاء فى قوله جل شأنه : ﴿ فخلق

فسرى ﴿ أنى أنه بعد وجود العلة يبدأ الانقسام المباشر للبويضة الملقحة بغير مهمة ، وفي مكان واحد هو الجهاز التناسلى للمرأة .

وأما التواء فى قوله تعالى : ﴿ فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى ﴾ فندل على أن الجنين يكون ذكرا أو أنثى أثناء تطوره فى الرحم قبل الوضع ، وتستعمل (ثم) بعد خروجه طفلا ، كقوله تعالى : ﴿ ثم يخرجكم طفلا ﴾ كما سبق ذكره .

قوله تعالى : ﴿ فمستقر ومستودع ﴾ قال تبارك وتعالى : ﴿ وهو الذى أنشأكم من نفس واحدة فمستقر ومستودع قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون ﴾ [الأنعام : ٩٨] .

وأرى فى هذه الآية الكريمة أن الله سبحانه وتعالى خلق الإنسان من والديه بطريق التناسل ، وقوله : ﴿ من نفس واحدة ﴾ أى باعتبار أن والدين نفس واحدة ، وذلك كقوله تعالى : ﴿ ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة ﴾ [الروم : ٢١] .

وأما قوله تعالى : ﴿ فمستقر ومستودع ﴾ فأحد الجسدين مستقر ، والآخر مستودع ، أى أن أحدهما يكون مستقرا للطفة التى ينشأ منها الإنسان ، والآخر مستودع لها ، وسمى الذكر مستقرا لأن الططفة تستقر فيه فى أنثيه وبطريق أدق من ذلك تكون الحصىة هى المستقر ، ويكون الرحم هو المستودع .

فيكون معنى الآية الكريمة : أن الله تعالى هو الذى خلقنا ﴿ من نفس واحدة ﴾ أى من ذكر وأنثى متزاوجين ، فهما كنفس واحدة ، أحدهما تستقر فيه الحيوانات النوية فى أنثيه ، والآخر تستودع فيه هذه الحيوانات بخلقها للبويضة فينشأ النسل .

بل أقول أبعد من ذلك : أن النفس الواحدة هى البويضة الملقحة ، فقوله : ﴿ أنشأكم من نفس واحدة ﴾ أى من بويضة ملقحة بالطفة ، أى أنشأكم من علة ، وهى نفس واحدة ، وقد بينا كيف تحمل الططفة صفات الأب وتحمل البويضة صفات الأم ليختل لك منها الصفات الجسمية والعقلية والنفسية للأب أو الأم .

فالتطويح والتزاوج بين الخليتين يحصل الدماح الصفات وتوزعها بطريقة خاصة من حيث ينشأ الإنسان وهو حامل لصفات الأب والأم من طور العلة .

وقد يكون المستقر هو كل من الأنثيين والبيضين والمستودع هو الرحم ، أو يكون

المستقر الأنثيان بالتغليب ، لأن الظاهر كراهة عامة الناس أن الإنسان هو الذى ينحدر الخلقه وينظر أين يضعها وأن المرأة أو ترحم هو المستودع .

فالآية الكريمة بذلك تحمل كل هذه معانى ، وإنسى على ضوء ما بينته لأفضل تفسير الآية الكريمة على هذا النحو .

قال تعالى : ﴿ وهو الذى أنشأكم ﴾ أى أن الله تعالى أنشأكم أيها الناس وخلقكم ﴿ من نفس واحدة ﴾ أى مرحلة واحدة حية ذات حياة واحدة ، ونفس واحدة ، أى من علة أى من بويضة ملقحة بالحيوان النوى ﴿ فمستقر ﴾ أى فستقرون أول الأمر فى الأنثيين نطفة ، وقوله : ﴿ ومستودع ﴾ أى ثم تستودعون فى البويضة فتعده بذلك البويضة مستودعا لكم وذلك بواسطة تلقيحها بالططفة فتصبح علقته .

وهذه الآية الكريمة تذكر طور العلقه فى صورة واضحة حلية ، وتصفها وصفادقيقا ودليل ذلك :

أولا : أن العلة هى حلية واحدة ذات نفس واحدة أو حياة واحدة تخمى على صفات الخليتين المتزاوجين ، وهذا ثابت علميا ومشاهد علميا وعاطفيا واجتماعيا وسلوكيا ... إلخ ، ويفسر قوله تعالى : ﴿ من نفس واحدة ﴾ .

ثانيا : أن الخلق المباشر للإنسان هو من طور العلقه ، فإن طور الطين قبل ذلك ، وبعد عنه ، وكذلك طور الططفة .

وقد بينا هذا آنفا . قال تعالى : ﴿ اقرأ باسم ربك الذى خلق . خلق الإنسان من علق ﴾ [العلق : ١ - ٢] وهذا كقوله جل شأنه : ﴿ وهو الذى خلقكم من نفس واحدة ﴾ أى من علة .

قال تعالى : ﴿ قد فصلنا الآيات ﴾ أى ووضحناها وذكرنا أطيوار الخلق بصور مختلفة مرتبطة ببعضها ، فصلها الله تعالى بقوله : ﴿ لقوم يفقهون ﴾ .

قال تعالى : ﴿ وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ فى ظلمات ثلاث ﴾ .

قال تعالى : ﴿ خلقكم من نفس واحدة ثم جعل منها زوجها وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج يخلقكم فى بطون أمهاتكم خلقا من بعد خلق فى ظلمات ثلاث ذلكم الله ربكم له الملك لا إله إلا هو فأتى تصريفون ﴾ [الزمر : ٦] .

قال السادة المفسرون : الضمات الثلاث هى : البطن والرحم والنشيمة . وقال

قوله تعالى : ﴿ يخرج من بين الصلب والترائب ﴾ [الطارق : ٧] .
قال تعالى : ﴿ فليظفر الإنسان مم حلق . حلق من ماء دافق . يخرج من بين الصلب

والترائب ﴾ [الطارق : ٧ - ٥] .

والماء الدافق هو السائل المنوي الذي يحتوي على الحيوانات المنوية الحية ، وسمى دافقا لأنه يصب عند الملاسة بواسطة الانقباضات الخاصة التي تدفع بها القناة الناقلة والموصلة المنوية ، هذا السائل المحتوى على الحيوانات الحية ، وهو قوله تعالى : ﴿ ألم

يلك نقطة من منى يميني ﴾ [القيامة : ٣٧] .

ويقول صاحب القاموس المحيط : دققه يدققه ويدققه صبه ، وهذا ما يجعل الماء الدافق خاصا بالذكر وحده دون الأنثى ، إذ ليس للمرأة ماء يصب ويتدفق بشدة كماء الرجل . بل أن للمرأة إفرازا يسيل ليجرد تليث الجهاز التناسلي وترطبه مثل سيلان اللعاب والعم . وبذلك يكون قوله تعالى : ﴿ يخرج من بين الصلب والترائب ﴾ أى يخرج من

بين صلب الرجل وترائبه ولا دخل هنا لصلب المرأة وترائبها مطلقا كما قدما .
والصلب هو السلسلة الفقرية من لدن الكاهل إلى العجز ، والكاهل مقدم أعلى الظهر مما على العنق ، والعجز هو المصعص أى عظام الذنب ، والترائب هي عظام الصدر ولقد رأينا عند الكلام عن النطفة أنها تكون حقيقة في القنى المنوية في الأنثيين ولا تتكون في الصلب ولا تتكون كذلك من الترائب .

قوله تعالى : ﴿ يخرج من بين الصلب والترائب ﴾ ليس معناه أنه يخرج منهما ، ولكن معناه أنه يخرج بينهما ، أى يخرج من مكان يقع بينهما ، وهذا من عظيم أسرار الإسلام في الصلب وليبان ذلك أقوال :

إن أول ظهور الخصية في الجنين يبدأ كضخامة على طول السطح الأوسط (المهبولف) .

وهو عبارة عن حزمة تتكون من تزايد قصى ولف في العدد ، وهذه الضخامة تسمى (العدد التناسلية) التي تتكون بنشاط البشرة المخاطية الندية ، أى تختص بتكوين الأعضاء التناسلية في الذكر والأنثى .

ومكان العدد التناسلية يكون في أول الأمر في الفراغ البطنى على جانب المساريقا

بصهم : الصلب والرحم والبطن ، ولكنى اعتقد أن الظلمات الثلاث هي : الأنثيان أى الخصيتان والبضيان والرحم .

ولما كانت النطفة الملقحة أو البويضة المستقلة للنطفة لا تخرج إلا من خصية واحدة أو من مبيض واحد ، ويدثر الباقي ، فتكون الظلمات الثلاث هي : الخصية والمبيض والرحم ، فالحيوان المنوى يكون في خصية الرجل وتعتبر خصيته ظلمة وبويضة الأنثى تنشأ في المبيض ويعتبر المبيض ظلمة .

فإذا اجتمعا ليكونا الجنين صارا إلى الرحم لينم الحلق حتى الولادة ، فيعتبر بذلك الرحم الظلمة الثالثة ، ولقد شرحت هذه الظلمات شرحا وافيا في هذا البحث فلا أرى داعيا إلى إعادة ذلك في هذا المقام .

ولقد هداني إلى هذا التفسير ما أراه من الارتباط الوثيق بين جميع آيات الكتاب الكريم التي تناولت خلق الإنسان وأطواره ، وأظنى بيتا تماما فيما سبق كيف أن الله تعالى ذكر النطفة في الرجل وعدعا أحد أطوار الحلق .

وكيف ذكر البويضة في الأنثى وأشار إليها إشارات صريحة ، وأرى أنه لا يمكننا إغفال الخصية ، وقد ذكر الله تعالى كما قلنا أن النطفة تنشأ فيها وعد النطفة طورا وأن أطوار الحلق ، فلذلك لزم أن تكون الظلمة الأولى هي التي يتكون فيها هذا الطور ، وتكون بذلك الظلمة الثانية المبيض ، والرحم الظلمة الثالثة ، بقوله تعالى : ﴿ يخلقكم في بطون أمهاتكم ﴾ أى يخلقكم من طريق التزاوج .

وتلقيح النطفة للبويضة ويتم هذا في جهاز المرأة ، فتكونون بذلك في طور العلقة ، وهكذا يخلقكم الله تعالى في بطون أمهاتكم ، وكذلك يخلقكم ﴿ خلقا من بعد خلق في ظلمات ثلاث ﴾ فتكونون أولا نطفة في آباتكم وتكونون كذلك في ظلمة ثانية في مبيض المرأة ، لأن للمرأة نصيبا في تكوين الجنين .

فالمبيض بذلك هو الظلمة الثانية ، فإذا جاء طور العلقة نشأت في الأحوال العادية في رحم المرأة ، فيكون الرحم بذلك الظلمة الثالثة ، وتشبه هذه الثلاثة قوله تعالى : ﴿ فمستقر ومستودع ﴾ كما بينا .

على الجهة الأمامية لجسم ونف ، وكلما زاد حجم الغدة التناسلية والحفاظ فوق الكل فل حجم ونف شيئا فشيئا فتحل محله الكلية (الحقيقة) ما عدا جزعا صغيرا من رأسه فإنه يدخل في تركيب الأعضاء التناسلية ، وهذا المكان الذي تتكون فيه الخصيتان يقع تماما بين الصلب والتراب حيث يبدأ تكوين الأعضاء التناسلية التي يتكون فيها السائل المنوي والحيوانات المنوية .

فالأية الكريمة ترشدنا بذلك إلى أصل تكوين الغدد التناسلية في الإنسان ، وتدلنا على مكان وجودها الأول فيه : ﴿ فلينظر الإنسان ﴾ ولينأمل وليفكر وليبحث ﴿ ثم خلق ﴾ أي من أي شيء خلقه ربه ﴿ ثم خلق من ماء دافق ﴾ أي من حيوان منوي ينمى مع السائل المنوي وينصب معه بشدة ليصل إلى الجهاز الداخل التناسلي للمرأة تأثير الانقباضات الخاصة - كما قدما - والمراد به - كما ذكرنا آنفا - ماء الرجل وحده ﴿ يخرج ﴾ أي باعتبار نشأته الأولى وأصل وجوده في الجنين ، وذلك كقولته تعالى : ﴿ هو الذي خلقكم من طين ﴾ والمخطاب لسل آدم ، وليس النسل الحالي طينا ، ولكنه من طين باعتبار ما كان ل الأصل ، وكقولك : كنت صديقا للدكتور فلان رحمه الله وهو ليس بالدكتور بعد أن توفاه الله ، ولكن كلامك صحيح لانه لأنه دكتور باعتبار ما كان أثناء حياته ، وكذلك الإنسان يخرج باعتبار ما كان ﴿ من ﴾ أي من مكان يقع ﴿ بين الصلب والترائب ﴾ أي بين عظام السلسلة الفقرية وعظام الصدر .

ولذلك لتجد خصية الجنين حوالي آخر الشهر الثاني لوجوده في الرحم خلف الكلية مغلفتين بشية من الريتون في مكان يقع بين عظام السلسلة الفقرية والضلعين الحادي عشر والثاني عشر .

ولأمر ما تترك الغدة التناسلية موضعها الأصلي وتندل لتأخذ مكانها العادي في الضلعين (جلد الخصيتين) في الشهر التاسع للحمل ، وأما في نهاية الشهر الثالث فتجد الخصيتين على العضلة الحرقية .

وفي الشهر السادس نخدها في الإبرة (من الورك) .
وفي الشهر الثامن نخدها في القنطرة الأربية حتى تأخذ موضعها المشار إليه .
وتقع الكليتان في المكان الصلبي (القطني) من الجسم ، ونخدها عن يمين الصلب ويساره من القنطرة الظهرية الثانية عشر ، والقنطرة الثالثة الصلبية ، وحلقهما القلبع الثالث

عشر والزوائد المستعرضة للفقرتين الثانيةين الصليبتين والكليتين التي تقع في الغالب أسفل ففليل من اليسرى .

ولعل هناك صلة منية بين نشوء الغدة التناسلية أعلى الكليتين وبين نشوء الحفاظ فوق الكل أي لها تأثير كبير على الناحية الجنسية .

والحفاظ فوق الكل تتكون من جزئين هامين ، الجزء الخارجي ويسمى القشرة ، والجزء الداخل فيها ويسمى اللب ، وأسأرمن ها على وجود العلاقة المينة بين الحفاظ بقسمها وبين الأعضاء التناسلية ، وأرى أن أين هذه الصلة بشيء من التفصيل كما يلي :

الجزء الخارجى من الحفاظ ويسمى القشرة وينشأ من الجسم (الولوى) الذى تنبت منه أعضاء التناسل ، فالقشرة بذلك من أصل الميزودرم الذى تنشأ منه ايشيلوما القنى المنوية والرحم وأعضاء الذكر التناسلية وتدخل في ذلك الخصيتان وقنواتهما واميشيلوما المويصلة البروستاتية والمبايض وحويصلات جراف وقناة فالوب والرحم والجزء الأعلى من المهبل .

والقشرة لها إفراز داخل له تأثير عظيم على الأعضاء التناسلية ، وبشت ذلك إذا أصيبت القشرة بالتضخم أو الأورام في الأولاد ، إذ يصحب ذلك بدور النمو وتكثيره وازدياد في تقدم الحالة الجنسية مع السن المفرط والشذوذ في توزيع الشعر ، فيبدو الولد الذى في سنة عشرة سنة وكأنه في سن الثامنة عشر سنة ، ليس فقط من حيث الطول والوزن ونمو العضلات بل كذلك ل عمق الصوت ونمو الشعر في الشفة العليا والإبط والعانة وتقدم الأعضاء التناسلية ويصبح ناضجا من هذه الناحية ، وتغزو ميوله ميول شاب في الثامنة عشر لا في سن السنة عشرة سنة .

وقد وجدت أولاداً في سن الستين وهم أعضاء تناسلية كاملة النمو .
وعندما يزيد إفراز هذا الجزء في الكبار من الرجال يزيدون في السمن المفرط ، وفي النساء يقف الحيط وينمو شعرهن نحو شعر الرجال .

وعند استئصال الأورام التي تصيب القشرة ، قد يرجع الشعر لحالته الطبيعية ، وتعود الأعضاء التناسلية لحالتها الطبيعية كذلك . وعدم كفاية إفراز القشرة في الرجال ينتج عنه استرخاء القضيب ونقص في التغذية الجنسية .

طور المضغة

قال تعالى : ﴿ فخلقنا العلقة مضغة ﴾ ، وأرى طور المضغة في حياة الجنين هو ذلك الطور الذي تتحول فيه البويضة الملقحة إلى حالة تصبح فيها مكونة من ثلاث طبقات : الطبقة الخارجية والطبقة الوسطى والطبقة الداخلية .

وأرى في هذا المقام أن اكسب كلمة مختصرة عن تحول العلقة إلى مضغة ، فإنه بمجرد اندماج خلية الذكر والأنثى وتكونها خلية واحدة ، يبدأ النشاط على هذه الخلية الأخيرة ، فتقسم انقساماً ذاتياً إلى خليتين متساويتين الحجم تقريباً ، وتقسم كل منهما فتتولد من هاتين إلى خليتين أخريين فتصبح الخلية الأولى أربع خلايا ، تنقسم كل منها فتتولد ستة عشر وهكذا يستمر الانقسام حتى تتجمع في البويضة عدد كبير أو كتلة من الخلايا وتسمى البويضة وفي هذه الحالة (التوتية) لوجه شبه بينها وبين ثمرة التوت .

يظهر بعد ذلك تحول في هذه الكتلة ترتب إلى طبقتين ، طبقة خارجية وأخرى داخلية ، والطبقة الخارجية ترتب نفسها على محيط دائرة البويضة ولا تدخل في تكوين الجنين بل تلعب دوراً هاماً في ترسيد البويضة في الغشاء المخاطي المبطن للرحم فتكون المشيمة . والطبقة الداخلية هي التي ينشأ منها الجنين ويتصل بالطبقة الخارجية عند بقعة واحدة تسمى البقعة الجرثومية .

بعد ذلك تكون الطبقة الداخلية غشاء يسمى (بلاستودرم) أو (أدمة الجرثومة) لا يلبث أن ينقسم إلى ثلاث طبقات من الخلايا : طبقة خارجية وتسمى (اكودرم) ، وطبقة داخلية تسمى (اندودرم) ، أخرى بينها تسمى (ميزودرم) .

وكل طبقة من هذه الطبقات مستقلة عن أختها تمام الاستقلال ، ولكل منها نسج خاص بذاته تنشأ منه أعضاء خاصة وأسجة معينة من أنسجة الجنين ، وهذا الطور على ما نعتقد يسمى بالمضغة ، ولقد دعانا إلى تعيين هذا الطور وتحديد قوله تعالى : ﴿ يا أيها الناس إن كنتم في ريب مما نزلنا فبأب خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم

ولب المحافظ فوق الكل تنشأ من الخلايا التي تنفصل من بقايا المجموعة أو العقد العصبية السنتارية المجاورة والملاحقة لها ، فهي على ذلك من أصل اكودرمي .
والجموعة العصبية السنتارية لها تأثير هام على الأعضاء التناسلية ، إذ أنها تتفرع إلى ثلاثة ضفائر هي : الضفيرة القلبية والبطنية والموضية .

والضفيرة البطنية تنقسم إلى أخرى أقل منها كضفيرة المحافظ فوق الكل وضفيرة الحصىتين (أو المبيضين) والحاجزية والطحالية والكبدية والمعدية اليسرى والكلىوية والمسارية العليا والبطنية الأورطية والمساريفي الداخلية .

وضفيرة المحافظ فوق الكل تتكون من فروع الضفيرة البطنية المتحدة من العقدة البطنية . ومن الأعصاب الحاجزية والحشوية وتتكون عقدة عند نقطة اتصال العصب الأخيرة والضفيرة تنفذ المحافظ فوق الكل وتنتشر خاصة في جزئها اللتي .

وضفيرة الحصىتين متخذة من الضفيرة الكلىوية وتستقبل فروعاً من الضفيرة الأورطية وتصحب في سريانها الشريان المحصورى إلى الحصىتين .

وفي المرأة تنشأ الضفيرة الميضية العصبية من الضفيرة الكلىوية ، وتصحب الشريان المبيض وتنزلى المبيض وجسم الرحم .

والضفيرة الثالثة من ضفائر العقد السنتارية هي الضفيرة الموضية وتنقسم إلى ضفائر أخرى كالضفيرة الشرجية الوسطى والضفيرة الثانية التي تعطي فروعاً إلى المويصلان المئوية والقنوات الناقلة للمني والفروع التي تصحب هذه القنوات الأخيرة تتحد عند الحبل المنوى مع الفروع التي تأتي من الضفيرة المحصورة والضفيرة الثالثة من الضفيرة الموضية تسمى الضفيرة البروستاتية وتعطي البروستاتا والمويصلة المئوية وأغشية القضيب . الضفيرة المهبلية تعطي المهبل والرحمة وتعطي الرحم وتتحد مع الضفيرة الميضية ، تثبت لك بذلك الصلة المنيية بين هذه الأعضاء التي تنشأ في مكان واحد وصلتها المنيية بعضها بعض فالأعضاء التناسلية التي تنشأ بين الصلب والترائب مع المحافظ فوق الكل والعقد السنتارية لها علاقة عظيمة مع الآخرين واتصال وثيق بينهما ، وهذه الحكمة هي التي نتخذ من معنى قوله تعالى : إن الإنسان خلق من مكان يقع بين الصلب والترائب .

من علفة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لبيان لكم ونقر في الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى ﴿الحج : ٥﴾ .

فتوبه تعالى : ﴿مخلقة وغير مخلقة﴾ صفة للمضغة ، وتوضح حالتها وتحديد لها ، قال تعالى : ﴿لبيان لكم﴾ أى لبيان لكم طور المضغة وغيرها .

فالمضغة مخلقة لتكون الثلاث طبقات التى تعتبر أصل الأعضاء المختلفة في الجسم الإنسانى والختوية على عناصرها فهى نواة أنسجة الجسم وأجزاء البدن .

فإن من الزكودروم تنشأ معظم الأنسجة الإيثولية في الجسم الإنسانى ، وكذلك تنشأ منها أنسجة الجهاز العصبى والغدة الصنوبرية ولب المخاطف فوق الكلى ومعظم الغدة النخامية .

وتنمو من الاندودرم كذلك الغدة الدرقية والبقايا الجرثومية للغدة النجمية .

ومن الاندودرم يتكون اميتليومات الجهاز الهضمى (ما عدا القم) وجميع غدد هذا الجهاز واميتليومات قناة استاخيوس من الطبقة إلى البلعوم والتجويف الطليل للأذن والحنجرة والقنصية الهوائية وشعباتها والحلويات الهوائية والثالثة ويمجرى بول المرأة وأعلى المهبل وأعلى مجرى بول الرجل وغدده .

وينمو من الميزودرم كل الأنسجة الحام وخلايا الدم والليف والطحال والغدد الليفغارية وقشرة المخاطف فوق الكلى والعارشة الداخلية للقلب والأوعية الدموية والليفغارية والأغشية المصلية وجميع عضلات الجسم واميتليومات القنوات الحاملة للبول والحالبين وحوض الكلبيين والأعضاء التناسلية للرجل والمرأة .

فبذلك نجد أن هذه الأغشية الثلاث هى بذور أعضاء الجسم المختلفة ، وكان بالمضغة مخلقة لوجود هذه العناصر والأنسجة والأعضاء في مادتها تنمو منها شيئا فشيئا وكان بالمضغة ساعدت كحبة القول حيث توضع في الماء أو في الأرض المبللة فتفرج فلتتها عن المضغة الجيبية وعن ظهور عشاءين أحدهما يحل الجذر والثانى يمت الجذع والفروع والأوراق والثمار .

فحة القول لا تستطيع أن تسميها شجرة ولكلك تستطيع أن تسميها نباتا أو بذرة منبته لأن أجزائها ابتدأت في الوضوح والبذرة بذلك مخلقة كالمضغة لوجود الأصول وغير مخلقة لعدم ظهورها ووضوحها .

70

ولقد دعانى إلى تسمية هذا الطور بالمضغة كذلك لأنهم طور من أطوار الجنين في الرحم بعد العلفة ، فالمعلقة حمل وتلقيح البويضة ، والمضغة ابتداء ظهور الأنسجة المختلفة للجسم الإنسانى .

ولا يفوتنى هنا أن أذكر حكمة وضع (ثم) هذا الموضع في هذه الآية الكريمة بعد العلفة ، وهى للترتيب مع التراحم بدلا من الغاء الذى تدل على الترتيب مع التعقيب ، فذلك لأن الله تعالى حيث ذكر أن المضغة مخلقة وغير مخلقة أراد تفصيلها ووصفها ، وأراد عداها طورا هاما في أطوار الخلق ، وأنها لا تنشأ طرفة واحدة ، بل أراد أن العلفة

لا تبلغ طور المضغة المخلقة وغير المخلقة إلا بعد أن تعربها تغيرات عديدة وتطورات ثانوية مختلفة ، فلا يؤذى المعنى تأما إذا قلنا : ثم من علفة ثم من مضغة مختلفة وغير مخلقة لبيان لكم ، فتوبه تعالى في وصف المضغة : ﴿مخلقة وغير مخلقة﴾ وقوله تعالى بعدها : ﴿لبيان لكم﴾ يقتضى وضع (ثم) ، وأما إذا حذف هذا الوصف فإنك

تستطيع وضع الغاء ، وهذا مثل من أمثلة البلاغة في القرآن الكريم ، والدقة في التعبير في آيات الكتاب الذى يقول الله تعالى عنه : ﴿الر . كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير﴾ [هود : ١] . وقوله جل شأنه : ﴿كتاب فصلت آياته قرآنا

عربيا لقوم يعلمون﴾ [فصلت : ٣] . وهكذا نجد الحرف في القرآن وهكذا لا نجد حرفا في القرآن الكريم ليس له معنى ، وهكذا نجد الحرف في القرآن الكريم يشير إلى أدق الأغراض وأسمى المعانى مما لا يدركه من لم يتنوق كتاب الله ولم يتدبر ألفاظه ومعانيه ، وصدق ربنا جل وعلا في دعوته خلقه للتدبر في كلامه ..

في قرآنه .. في واحدة من صفاته العلا حيث قال جل شأنه : ﴿أفلا يتدبرون القرآن .. ولو كان من غير عند الله لوجدوا فيه اختلافًا كثيرا﴾ [النساء : ٨٢] . وكيف يتأتى الاختلاف وصاحب الدين هو خالق الخلق ! سبحانه .

71

اليوم الحق

نصل، ﴿ذَلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ مَثَابًا﴾ [النبا: ٣٩].

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، وأصلى وأسلم صلاة وتسليما يليقان بمقام خاتم الأنبياء والمرسلين، وأشهد أن لا إله إلا الله ولي الصالحين، وأشهد أن سيدنا ونبينا وعظيمنا وحبيبنا محمداً رسول الله تاج الأنبياء والمرسلين.

صَلِّ اللَّهُمَّ وَسَلِّمْ وَبَارِكْ عَلَىٰ هَذَا النَّبِيِّ الْأَمِينِ، وَعَلَىٰ آلِهِ وَصَحْبِهِ الْغُرِّ الْميامين، وَارْحَمْ اللَّهُمَّ مَنَابِيحَنَا وَوَالِدِيَنَا وَأُمُورَنَا وَأُمُورَاتِ الْمُسْلِمِينَ أَجْمَعِينَ.

اللهم إنا نستعينك ونستعديك ونستغفرك، ونُتوبُ إليك ونُؤمِنُ بك ونُتَوَكَّلُ عليك ونُتَقِيُ عليك الخير كله، نشكرك ولا نكفرك، ونُخَلِّعُ ونُتْرِكُ من يَفْجُرُكَ، اللهم إياك نعبد ولك نصلِّي ونسجد، وإليك نسعى ونُحْفِدُ، نرجو رحمتك، ونُخَشِيُ عذابك، إِنْ عَذَابُكَ الْجَدُّ بِالْكَفَّارِ مُلْحَقٌ، وَصَلَّى اللَّهُ عَلَىٰ سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَىٰ آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلِّمْ.

أما بعد :

فإن أصدق الحديث كتاب الله تعالى، وخير الهدي هدى سيدنا محمد ﷺ، ونشر الأمور محذاتها، وكلُّ محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

وبعد :

فهذا كتاب خصصنا الحديث فيه عن اليوم الآخر الذي يجب على كل مسلم أن يُعَدَّ له الزاد، وقد سأل أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز تقي الدين الحسن البصري فقال له : عظمنا. فقال الحسن : يا أمير المؤمنين صم عن الدنيا وأفطر على الموت، وأعد الزاد الليلة صحتها يوم القيامة.

طور العظام واللحم

قال تعالى : ﴿فَخَلَقْنَا الْمَصْفَةَ عظاماً فَكُسُونَا الْعظامَ لحماً﴾ ولقد ثبت فعلاً في علم الأجنة أن العظام تنشأ بعد طور المصفة مباشرة فإن التوتوكورد أو الحبل الأصل الظهري هو المحور الأول لنظام الجنين الذي تتكون حوله أجزاء العمود الفقري، ولمعرفة تفاصيل نشوء العظام يرجع في ذلك إلى كتب علم الأجنة، وما أردنا هنا إلا إثبات معجزة القرآن الخالدة في تقريره نشوء العظام قبل اللحم.

تنشأ عظام الجنين فلا تلبث أن تنشأ حولها العضلات واللحم، وتظهر أجزاء الجسم الجنيني شيئاً فشيئاً حتى يصير خلقاً آخر بولادته، وهو قوله تعالى : ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ فَبَارَكِ اللَّهُ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ﴾.

﴿خلق الزوجين الذكر والأنثى من نطفة إذا تمنى﴾ ولقد ثبت في علم الطب أن بويضة الأنثى ليس لها دخل في تكوين الذكر أو الأنثى، بل إن الحيوان المنوي نفسه (النطفة) هو وحده الذي يحدد نوع المولود سواء كان ذكراً أو أنثى.

(هذا البحث من كتاب «الإسلام والطب» للدكتور محمد وصفي، ولغيره من العلماء آراء أخرى، وما زال هذا البحث على اجتهاد العلماء الذين تعددت آراؤهم^(١)، وكل أدلى بدلوه حسب اجتهاده، والكل يجمع على عظمة الخالق جل جلاله، والكل مجتهد بعلم، فإن أصاب فله أجران، وإن أخطأ فله أجر، والله نسأل أن يوفق الجميع لما يحبه ويرضاه).

(١) مع مراعاة أن المخالفات العلمية نائمة للمخالفات الدينية وليس العكس... فالحكم الهائي في أي قضية علمية يخضع للحقيقة الدينية ويتفق منها امتداداً ل إعطاء القرآن وهذا من الأهمية بمكان في جميع الأبحاث التي يروح بها أصحابها رضوان الله وشفاعته نبيه عليه الصلاة والسلام.

وقال الإمام أحمد : حدثنا يحيى عن حاتم بن أبي صبرة ، حدثنا ابن أبي مليكة : أن القاسم ابن محمد أخيره عن عائشة رضى الله عنها عن النبي ﷺ قال : « إنكم تحشرون يوم القيامة خفأة نجرانة غرلا » . قالت عائشة ، يا رسول الله : الرجال والنساء ينظر بعضهم إلى بعض ؟ قال : « يا عائشة : إن الأثر أشد من أن يسمهم ذاك »^(١) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا يحيى بن إسحاق حدثنا بن لهيعة ، عن خالد بن أبي عمران ، عن القاسم بن محمد ، عن عائشة قالت : قلت ، يا رسول الله : هل يذكر الحبيب حبيب يوم القيامة ؟ قال : « يا عائشة أما عند ثلاث فلا : أما عند الميزان حتى ينقل أو يخف فلا ، وأما عند تطاير الكتب فإما يعطى يمينه وإما يعطى بشماله فلا ، وحين يخرج عنق من النار لينظرى عليهم ، ويتعيط عليهم ، ويقول ذلك العنق : وكلت بئلا ، وكلت بئلا ، وكلت بئلا : وكلت بمن ادعى مع الله إلهاً آخر ، ووكلت بمن لا يؤمن بيوم الحساب ، ووكلت بكل جبار عبيد ، قال : فينظرى عليهم ، ويومهم في عمرات ، ولهم جسر أدق من الشعر وأحد من السيف ، عليه كلاب وجسك (شوك) يأخذون من شاء الله ، والناس عليه كالطرف والبرق والاربع كأجويد الحيل والزكاب والملايكة يقولون : رب سلم ، سلم ، فهاج مسلم ، ومخدوش مسلم ، ومكزور في النار على وجهه » . ومعنى قوله تعالى : ﴿ إن زلزلة الساعة شيء عظيم ﴾ أى أمر عظيم وحط جليل وطارق فطيع وحادث هائل وكائن عجيب^(٢) .

قال تعالى : ﴿ إذا زلزلت الأرض زلزالها . وأخرجت الأرض أثقالها . وقال الإنسان ما لها . يومئذ نخدث أخيارها . بأن ربك أوحى لها . يومئذ يصدر الناس أشتاتا ليروا أعمالهم . فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره . ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره ﴾ [الزلزلة : ١ - ٨] والمراد بزلزال الساعة ما يحدث للعقول من فزع وكرب شديد . قال عز وجل : ﴿ إن الذين سبقتم لهم من الجنة أولئك أولئك عنها مبدون . لا يسمعون تحسبها وهم فيما اشتهت أنفسهم خالدون . لا يحزنهم الفزع الأكبر وتتفاهم الملايكة هذا يومكم الذى كنتم توعدون ﴾ [الأنبياء : ١٠١ - ١٠٣] .

(١) المرجع السابق ص ٣٨٨ ، وضع الباري في الرفاق .
(٢) ابن كثير : ط الشعب ج ٥ ، ص ٣٨٨ .

ومعنى قوله جل شأنه : ﴿ يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت ﴾ أى يشغل كل حميم عن حميمه ويغتر كل صديق عن صديقه ، حتى أن الأم تلقى ولدها تقول له : يا بني لقد كان بطلى لك وعاء ، وكان ثديي لك سقاء ، وكان حمجري لك غطاء ، وأنت تعلم ما لي ، أمك حسنة يعود غلى خيرها اليوم ، فيقول إنها : ليتى يا أمه استطيع ذلك ، إنى أشكو مما منه تشكين ، ويلقى الوالد ولده ، فيقول له ولده يا أبت : لقد كنت بك برا ، وإليك محسنا ، وعليك مشفقا ، فهل أجد عندك حسنة يعود غلى خيرها اليوم ، فيقول له والده : يا بني ليتى استطيع ذلك ، إنى أشكو مما منه تشكو . وهذا معنى قوله جل شأنه : ﴿ ولا تزد وازرة وزر أخرى وإن تدع مثقلة إلى حملها لا يحمل منه شيء ولو كان ذا قرنى ﴾ [فاطر : ١٨] .

وفى قوله تعالى : ﴿ وتضع كل ذات حمل حملها ﴾ معنى يلاغى معجز ، فإن الحامل لا تضع حملها قبل تمام مدته إلا إذا أصيبت بفزع شديد ، وطلع عتيف ، وهل هناك بعد زلزلة الساعة فزع أعنف أو هلع أشد ، إنها كناية من ألفة الكائنات ، وعبرة خيرا مادتها في أعلى طبقات البلاغة .

قال تعالى : ﴿ وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ﴾ وذلك لما أصابهم من الدمنة والشرود لمول ما يرون ﴿ يوم تكون السماء كالحل . وتكون الجبال كالهمم . ولا يسأل حميم حميما . يصرونهم يود الحريم لو يفتدى من عذاب يومئذ بنيه . وصاحبه وأخيه . وفصيلته التي تؤويه . ومن في الأرض جميعا ثم ينجيه . كلا إنها لظى نزاعة للشوى . تدعو من أدبر وتولى . وجمع فأوعى ﴾ [المعارج : ٨ - ١٨] .

ألا يكفى أن يكون هذا المشهد جديرا بأن تذهل المراضع عن أرضعن ، وأن تضع الحوامل حملهن قبل تمام مدته ، وأن يصير الناس في سكرة وحيرة ، العقول شاردة ، والآيات في دمنة ، والأفئدة قد بلغت الحماجر ﴿ فإذا جاءت الصاخة . يوم يفر المرء من أخيه . وأمه وأبيه . وصاحبه وبنيه . لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغيه . وجوه يومئذ مسفرة . صاخكة مستبشرة . ووجوه يومئذ عليها غبرة . ترهقها قفرة . أولئك هم الكفرة الفجرة ﴾ [عبس : ٣٣ - ٤٢] .

إنهم سكارى من شدة ما رأوا من خطوب وأموال ، وما هم بسكارى شراب ناعطوه ، أو كؤوس مترعة نجرعوما ، ولكن عذاب الله شديد : ﴿ ويحيى يومئذ يجمعهم

يؤمئذ يذكر الإنسان وأتى له الذكرى . يقول يا لى قدمت لحياى . فيؤمئذ لا يعذب عباده أحد . ولا يوثق وثاقه أحد ﴿ الفجر : ٢٣ - ٢٦ ﴾ .

إن هذه الآية الكريمة لو تاملت على جبل لخر لها النجلى هذا . إنها تخلع من قلوبها القلوب ، وتشيب من جلالها الولدان : ﴿ إذا وقعت الواقعة . ليس لوقعتها كاذبة . خافضة رافعة ﴾ [الواقعة : ١ - ٣] .

ما النجاة ؟ :

فى الآيتين السابقتين إشارات صريحة إلى أهوال يوم القيامة ، ويكفى أن نضع يد القارىء على هذه المواقف التى تجعل الولدان شيئا ، وتنقطع لها القلوب وتخلع من هولها الأفئدة .

﴿ إن زلزلة الساعة شيء عظيم ﴾ . ويكفى أن تعلم أن الذى أخبر عن كون الزلزلة شيئا عظيما هو الله العظيم .

﴿ تدخل كل مرضعة عما أرضعت ﴾ . وهل هناك صلة أقوى من صلة الأم بمرضعها . وهل ثمة عاطفة برحة تفوق عاطفة الأم بمرضعها ورحمتها به .

﴿ وتضع كل ذات حمل حملها ﴾ . وهل هناك هول أشد من هذا الهول الذى تطرح فيه الأرحام أحبا وتلفظها من القرار المكين لفظ النوى ؟

﴿ ونرى الناس سكارى وما هم بسكارى ﴾ . وهل هناك تعبير عن المجرة أقوى من السكارى ؟

﴿ ولكن عذاب الله شديد ﴾ . وفى كلمة العذاب والشدة ما تغيب أمامه النفس خائفة لحلال ربها ، متواضعة لكبرائه ، إن كلمة العذاب فى حد نفسها كلمة عصبية وخطيرة ، فإذا ما أخبر عنها بالشدة بلغت أعلى مكان من القول والخطب الجسم . وبعد هذا العرض السريع ، والمواقف الحاسمة التى نراها تتخلل الآية الكريمة ، نسأل : ما النجاة ؟

وباقى الجواب على لسان رسول الله ﷺ عندما سأله عتبة بن عامر رضى الله عنه وهو يقول : ما النجاة يا رسول الله ؟ قال له : « أمسك عليك لسانك وليسعك بيتك وأبلك على خطيئتك » .

أما إمسالك اللسان : فمن اللغو والرفث والكلام الفاحش ، وعن كل ما حرم الله من الغيبة والهيمة وشهادة الزور وقذف المحصنات المؤمنات . إلخ .

وهنا نسأل ما البديل عن كل هذا ؟

وغد الإجابة فى قوله ﷺ : « ألا أخبركم بخير أعمالكم وأزكاها عند مليككم وأرفعها فى درجاتكم ، وخير لكم من إنفاق الذهب والورق ، وخير لكم من أن تلقوا عدوكم فضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم ؟ » قلنا : بلى . قال : ذكر الله [رواه الإمام أحمد بإسناد حسن عن أنس الدرداء] .

ما أروعك يا سيدى يا رسول الله عندما تتكلم بمجامع الكلم فترفعنا إلى أعلى درجات البلاغة ، وما أروع ما قيل فيك :

**فما عرف البلاغة ذو بيان
إذا لم يتخذك له كتاب**

كلمة بجزرة أجاب بها الرسول ﷺ - عن هذا العرض العظيم - شملت (تضمنت) من الخيرات والأخر والدرجة والفضل ، هذه الكلمة هى ذكر الله ، وفى الذكر استحصال عظمة الله فى قلب المؤمن : ﴿ الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب ﴾ . نعم تطمئن لرحمته ومعرفته وعظمته وجوده وكرمه وعفوه . تجاوزه سبحانه .

فذكر الله دواء وشفاء ، وذكر الناس أسقام وداء (١) .

وهل طابت الدنيا إلا بذكره ؟

وهل طابت الآخرة إلا بعفوه ؟

وهل طابت الجنة إلا برؤيته ؟

﴿ إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا وعلى ربهم يتوكلون . الذين يقيمون الصلاة وما رزقاهم ينفقون . أولئك هم

(١) ذكر الله ... نعم !! فذكره سبحانه لا يضارح ... وهو أغل وأغل ما فى الوجود ... وهو الزجر الزاخر للذخور ... لكن ذكر الناس وكونه أعناقاً وداء ... فهو يجرى مجرى الداء ... لكن إن كان خيرا فيها ونعمت ... إذ قول الخير والبر دليل الإيمان الصادق .

المؤمنون حقاً لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم ﴿ [الأنفال : ٢ - ٤] .
وجلت قلوبهم تعظيماً لمهابة الله ، وتوقيراً لجلاله وبكائه وجماله ، فالذكر في القلب
لال لعظمته ومهابته ، فإذا أمسك الإنسان لسانه عن اللغو فإنه من الخير أن يشغل
بذكر الله .

والذكر كما قالوا على سبعة أنواع : ذكر العينين البكاء ، وذكر الأذنين الإصغاء (أى :
لسماع الخير) ، وذكر اللسان الثناء ، وذكر اليدين العطاء ، وذكر البدن الوفاء ، وذكر
الروح الحروف والرجاء ، وذكر القلب التسليم والرضا .. بدهاة مع الإخلاص والصدق
لباسط الأرض ، ورفع السماء .

فإذا ما وسع الإنسان بيته ، فقد أصبح بعيداً عن مواطن الشبهة ومجالس الرية وأماكن
الفسق . ومن وضع نفسه موضع الرية والشبهة ، فلا يلوم من أساء الظن به .
إذا ما وسع الإنسان بيته كما أخبر النبي ﷺ في إرشاده : « وليسعلك بيتك » فإنه
يكون في بيته كالصباح المضيء بين أولاده ، بعيداً عن كل ما يلهي ويشغل ، ويصبح
بيته من البيوت التي أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه .. لما ينساب تحت سقفه من
ذكر الله وحده في الجو الطاهر .

وتأتي الفقرة الثالثة : « وابل على خطيئتكم » وهل يبكي الإنسان على خطيئته إلا إذا
كان قلبه مليئاً بغير وتوبة ؟ هل يصل الإنسان إلى هذه الدرجة إلا إذا استحضّر عظمة
الله في قلبه ؟

﴿ والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن
يغفر الذنوب إلا الله ﴾ . ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون ﴿ إذن فمدار الأمر
كله وطريق النجاة يدور حول ذكر الله ويرتكز عليه ، فهو قطب الرحى ، ومناط
الاستنباط وحجر الزاوية وعمود الارتكاز ومركز الدائرة . ومن ثم فإنه لا بأس أن نسجل
هنا حشداً من فوائد الذكر التي نص عليها العلامة ابن القيم في كلامه القيم يقول :
عن أبي هريرة وأبي سعيد الخدري رضي الله عنهما قالاً : قال رسول الله ﷺ : « ما
من قوم يذكرون الله إلا حفتهم الملائكة وغشيتهم الرحمة ونزلت عليهم السكينة

(١) الرد : لا أحد .

وذكرهم الله فيمن عنده ﴿ [رواه مسلم والترمذي وابن ماجة .. بلفظ : لا يقعد
قوم يذكرون ...] :

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « يقول الرب
تبارك وتعالى : من شغله قراءة القرآن وذكرى عن مسألتي أعطيته أفضل ما أعطى
السائلين . وفصل كلام الله على سائر الكلام كفضل الله على خلقه » [رواه الترمذي :
(حسن غريب)] .

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « يقول الرب يوم
القيامة : سيعلم أهل الجمع اليوم من أهل الكرم (١) . فقيل : ومن أهل الكرم
يا رسول الله ؟ قال : أهل مجالس الذكر في المساجد » [رواه الإمام أحمد وأبو يعلى
والبيهقي وابن حبان في صحيحه] .

وعن معاوية رضي الله عنه أن النبي ﷺ خرج على حلقة من أصحابه فقال : « ما
أجلسكم ؟ » قالوا : جلسنا نذكر الله ونحمده . فقال : « أتاني جبريل فأخبرني أن الله
يباهي بكم الملائكة » [أخرجه مسلم] .

وعن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « ما من قوم اجتمعوا
يذكرون الله إلا ناداهم مناد من السماء : قوموا مغفوراً لكم قد بدلت سيئاتكم
حسنات » [أخرجه أحمد] .

وعن ثابت قال : كان سلمان في عصاية (جماعة) يذكرون الله فمر النبي ﷺ
فكفوا فقال : « ما كنتم تقولون ؟ » قلنا : نذكر الله . قال : « إلى رأيت الرحمة تنزل
فأحببت أن أشارككم فيها » . ثم قال : « الحمد لله الذي جعل في أمتي من أمرت
أن أصير نفسي معهم » [أخرجه الإمام أحمد والحاكم وصححه] .

« فوائد الذكر كما ذكرها العلامة ابن القيم » ؟

والآن إلى ما قاله ابن القيم رحمه الله تعالى .

(١) بمعنى الإكرام .. أهل لأن يكرموا ويجزل لهم العطاء وتفاض عليهم رحمت الله وجوده وعفوه .

قال رضى الله عنه في فوائد الذكر :
وفي الذكر أكثر من مائة فائدة :

الأولى : أنه يطرد الشيطان ويقسمه ويكسره .

الثانية : أنه ترضى الرحمن عز وجل .

الثالثة : أنه يزيل الهم والغم عن القلب .

الرابعة : أنه يجلب للقلب الفرح والسرور والبسط .

الخامسة : أنه ينور الوجه والقلب .

السادسة : أنه يقوى القلب والبدن .

السابعة : أنه يجلب الرزق .

الثامنة : أنه يكسو الذكر المهابة والحلاوة والنفرة .

التاسعة : أنه يورث المحبة التي هي روح الإسلام ، وقطب رحى الدين ، ومدار السعادة والنجاة ، وقد جعل الله لكل شيء سبباً ، وجعل سبب المحبة دوام الذكر ، فمن أراد أن ينال محبة الله تعالى فليطهح بذكره ، فالذكر باب المحبة وشارعها الأعظم وصراطها الأقوم .

العاشر : أنه يورث المراقبة حتى يدخله في باب الإحسان ، فيمد الله كانه يراه ، ولا سبيل للعاقل عن الذكر إلى مقام الإحسان ، كنما لا سبيل للقاعد إلى الوصول إلى البيت .

الحادية عشرة : أنه يورث الإنابة وهي الرجوع إلى الله عز وجل ، فمتى أكثر الرجوع إليه بذكره أورثه ذلك رجوعه بقلبه إليه في كل أحواله ، فيبقى الله عز وجل معروء وملجأ ، وملاذ ومعاذ ، وقلة قلبه ومهربه عند النوازل والبلايا .

الثانية عشرة : أنه يورث القرب منه ، فعلى قدر ذكره لله عز وجل يكون قربه منه ، وعلى قدر غفله بكون بعده منه .

الثالثة عشرة : أنه يفتح له باباً عظيماً من أبواب المعرفة ... وكلما أكثر من الذكر ازداد من المعرفة .

الرابعة عشرة : أنه يورثه الهيبة لربه عز وجل وإجلاله ، لشدة استيلائه على قلبه وحضوره مع الله تعالى ، بخلاف العاقل فإن حجاب الهيبة يرقق في قلبه .

الخامسة عشرة : أنه يورث ذكر الله تعالى له كما قال تعالى : ﴿ فاذكروني أذكركم ﴾ ولو لم يكن في الذكر إلا هذه وحدها لكفى بها فضلاً وشرافاً . وقال ﷺ فيما يروى عن ربه تبارك وتعالى : « من ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي ، ومن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم » .

السادسة عشرة : أنه يورث حياة القلب . وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى يقول : الذكر للقلب مثل الماء للسلك ، فكيف يكون حال السلك إذا فارق الماء ؟ يفقد الحياة ويموت .. قطعاً .

السابعة عشرة : أنه يورث جلاء القلب من الصدا ، وكل شيء له صدا ، وصدا القلب الغفلة والهوى ، وجلاؤه الذكر والتوبة والاستغفار .

الثامنة عشرة : أنه يزيل الوحشة بين العبد وربه تبارك وتعالى ، فإن العاقل بينه وبين ربه عز وجل وحشة لا تزول إلا بالذكر .

التاسعة عشرة : أنه يحط الخطايا وينهها ، فإنه من أعظم الحسنات ، والحسنات يذهب السيئات .

العشرون : إن العبد إذا تعرف إلى الله تعالى بذكره في الرجاء عرفه في الشدة ، وقد جاء أثر معناه أن العبد المطيع للذكر لله تعالى إذا أصابته شدة ، أو سأل الله حاجة ، قالت الملائكة : يارب صوت معروف من عبد معروف . والعاقل المعروض عن الله تعالى إذا دعاه وسأله قالت الملائكة : يارب صوت منك من عبد منك (أى : مجهول لهم) .

الحادية والعشرون : أنه منج من عذاب الله تعالى ، كما قال معاذ رضى الله عنه ويروى مرفوعاً : « ما عمل آدمي عملاً أنجى له من عذاب الله عز وجل من ذكر الله تعالى » [رواه الترمذى في كتاب الدعاء] .

الثانية والعشرون : أنه سبب تنزل السكينة وغشيان الرحمة وخفوف الملائكة بالذاكر كما أخبر به النبي ﷺ .

الثالثة والعشرون: أنه سبب اشتغال اللسان عن الغيبة والنميمة والكذب والفحش والباطل، فإن العبد لابد له من أن يتكلم، فإن لم يتكلم بذكر الله تعالى وذكر أوامره، تكلم بهذه المحرمات أو بعضها، ولا سبيل إلى السلامة منها البتة إلا بذكر الله تعالى.

والمشاهدة والتجربة شاهدان بذلك، فمن عود لسانه ذكر الله صان لسانه من الباطل واللغو، ومن يسر لسانه عن ذكر الله ترطب بكل باطل ولغو وفحش، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

الرابعة والعشرون: أن مجالس الذكر مجالس الملائكة، ومجالس اللغو والغفلة مجالس الشياطين، فليختر العبد أحدهما إليه وأولاهما به، فهو مع أهله في الدنيا والآخرة.

الخامسة والعشرون: أنه يسهل الذكر بذكره ويسعد به قلبه، وهذا هو المبدأ أينما كان، والغافل واللافتى يشقى بلغوه وغفله ويسقى به مجالسه.

السادسة والعشرون: أنه يؤمن العبد من الحسرة يوم القيامة، فإن كل من جاس لا يذكر العبد فيه ربه تعالى كان عليه حسرة ورتة يوم القيامة.

السابعة والعشرون: أنه مع البكاء في الخلوة سبب لإطلاق الله تعالى العبد يوم الحر الأكبر في ظل عرشه والناس في حر الشمس قد صهرتهم في الموقف وهذا الذكر مستظل بظل عرش الرحمن عز وجل.

الثامنة والعشرون: أن الاشتغال به سبب لعطاء الله للذاكر أفضل ما يعطى السائلين. ففي الحديث عن عمر بن الخطاب قال: قال رسول الله ﷺ: «قال سبحانه وتعالى: من شغله ذكرى عن مسألي أعطيته أفضل ما أعطى السائلين». **التاسعة والعشرون:** أنه أيسر القيادات وهو من أحلها وأفضلها، فإن حركة اللسان أخف حركات الجوارح وأيسرها، ولو تحرك عضو من أعضاء الإنسان في اليوم والليلة بقدر حركة لسانه أنشئ عليه غاية المشقة، بل لا يمكنه ذلك.

الثلاثون: أنه غراس الجنة، فقد روى الترمذي في جامعه من حديث عبد الله ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «لقيت ليلة أسرى نبي إبراهيم الخليل عليه

السلام، فقال: يا محمد أقرء أمك السلام، وأخبرهم أن الجنة طيبة التربة عذبة الماء، وأنها قيعان، وأن غراسها: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، [حسن غريب].

الحادية والثلاثون: أن العطاء والفضل اللذين رُتبا غلبته ثم رُتبا على غيره من الأعمال. ففي الصحيحين عن أبي هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «من قال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير في يوم مائة مرة، كانت له عدل عشر رقاب، وكتبت له مائة حسنة، ومحيت عنه مائة سيئة، وكانت له حرزا من الشيطان يومه ذلك حتى يمسي، ولم يأت أحد بأفضل مما جاء به إلا رجل عمل أكثر منه». و زاد مسلم والترمذي والنسائي: ومن قال: «سبحان الله وبحمده في يوم مائة مرة حطت خطاياها وإن كانت مثل ساق».

الثانية والثلاثون: أن دوام ذكر الرب تبارك وتعالى يوجب الأمان من نسيانه الذي هو سبب شقاء العبد في معاشه ومعهاده، فإن نسيان الرب سبحانه وتعالى يوجب نسيان (العبد) نفسه ومصالحها. قال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ

الثالثة والثلاثون: أن الذكر يسير العبد وهو في فراشه وفي سوقه، وفي حال صحته وسقمه، وفي حال نعمه ولذته، وليس شيء يعم الأوقات والأحوال مثله، حتى إنه يسير العبد وهو نائم على فراشه، فيسبق القائم مع الغفلة، فيصبح هذا النائم وقد قطع الركب وهو مستلق على فراشه، ويصبح ذلك القائم الغافل في ساقه الركب، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

وحكى عن رجل من العباد نزل برجل ضيفا، فقام العابد ليله يصلي وذلك الرجل مستلق على فراشه فلما أصبحا قال له العابد: سبقك الركب، فقال: ليس الشأن فيمن بات مسافرا وأصبح مع الركب، الشأن فيمن بات على فراشه وأصبح قد قطع الركب.

وهذا ونحوه له محمل صحيح ومحمل فاسد، فمن حكم على أن الرائد المضطجع على فراشه يسبق القائم الثالث فهو باطل، وإنما محمله أن هذا المستلقى

على فراشه غلق قلبه بربه عز وجل ، وألصق خبة قلبه بالعرش ، وبات قلبه يطوف حول العرش مع الملائكة قد غاب عن الدنيا ومن فيها ، وقد عاقه عن قيام الليل عائق من وجع أو برد يمنعه القيام أو خوف على نفسه من رؤية عدو له يظلمه ، أو غير ذلك من الأعداء ، فهو مستلق على فراشه وفي قلبه ما الله تعالى به عليم ، وآخر قائم يصلي ويطلب وفي قلبه من الرياء والعجب وطلب المجاه والخمعة عند الناس ما الله به عليم ، أو قلبه في زائد وجنسته في زائد . فلا زيب أن ذلك الرائد يصيح وقد سبق هذا القام بحر احل كثيرة فالعمل على القلوب لا على الأبدان ، والمعمل على الساكن لا على الأطلال والاعتبار بالهرك الأول فالذكر ينير الساكن ويهيج الحب المتوارى .

الرابعة والثلاثون : أن الذكر رأس الأصول ، وطريق عامة الطائفة الصوفية ، ومنشور الولاية ، فمن فتح له فيه فقد فتح له باب الدخول على الله عز وجل ، فليطهر وليدخل على ربه ليجد عنده كل ما يريد ، فإن وجد ربه عز وجل فقد وجد كل شيء ، وإن فاته ربه عز وجل فقد فاته كل شيء . ونعوذ بالله أن يفوتنا ربنا الرحمن الرحيم سبحانه .

الخامسة والثلاثون : أن الذكر شجرة تنمو المعارف والأحوال التي شمر إليها السالكون ، فلا سبيل إلى نيل ثمارها إلا من شجرة الذكر ، وكلما عظمت تلك الشجرة ورسخ أصلها كان أعظم لثمرتها ، فالذكر يشمر المقامات كلها من اليقظة إلى التوحيد ، وهو أصل كل مقام وقاعدته التي ينشئ ذلك المقام عليها ككتابتها الحائظ على أمه ، وكما يقوم السقف على حائطه ، وذلك أن العبد إن لم يستيقظ لم يمكنه قطع منازل السير ، ولا يستيقظ إلا بالذكر كما تقدم ، فالعقلة يوم القلب أو موته .

السادسة والثلاثون : أن الذكر قريب من مذكوره ، ومذكوره معه ، وهذه المعية معية خاصة ، غير معية العلم والإحاطة العامة ، فهي معية بالقرب والولاية والمحبة والنصرة والتوفيق ، كقوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ ﴾ والله مع الصابرين ﴿ وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ لا تحزن إن الله معنا ﴿ . ولذا ذكر من هذه المعية نصب وإفر ، كما في الحديث الإلهي : « أنا مع عبادي ما ذكرني وتحركت في شفتاه » .

وفي أثر آخر : « أهل ذكرى أهل مجالسى ، وأهل شكرى أهل زيادى ، وأهل طاعنى أهل كرامتى ، وأهل معصتى لا أقيطهم من رحمتي ، إن تابوا إلي فأنا حبيهم بإلى أحب التوابين وأحب المطهرين ، وإن لم يتوبوا فأنا طيبهم ، ابتليهم بالصائب لأظهرهم من الغائب » .

والمعية الحاصلة للذاكر معية لا يشبهها شيء ، وهي أخص من المعية الحاصلة للمحسن والتقنى ، وهي معية لا تدركها العبارة ولا تالها الصفة وإنما تعلم بالدوق .

السابعة والثلاثون : إن أكرم الخلق على الله تعالى من المتقين من لا يزال لسانه رطبا يذكره ، فإن انتفاه في أمره ونهيه ، وجعل ذكره شعاره ، فالتقوى أوجبت له دخول الجنة والنجاة من النار ، وهذا هو الثواب والأجر ، والذكر يوجب له القرب من الله عز وجل والرفق لديه ، وهذه هي المنزلة .

الثامنة والثلاثون : أن في القلب قسوة لا يذيقها إلا ذكر الله تعالى ، فينبغي للعبد أن يداوى قسوة قلبه بذكر الله تعالى .

وذكر حماد بن زيد : أن رجلا قال للحسن : يا أبا سعيد أشكو إليك قسوة قلبي . قال : أدبه بالذكر ، وهذا لأن القلب كلما اشتدت به الغفلة ، اشتدت به القسوة ، فإن ذكر الله تعالى ذابت تلك القسوة كما يذوب الرصاص في النار ، فما أذيت قسوة القلوب بمنزل ذكر الله تعالى .

التاسعة والثلاثون : أن الذكر شقاء القلب ودواؤه ، والغفلة مرضه ، فالقلوب مريضة ودواؤها وشفاؤها ذكر الله تعالى . قال مكحول : ذكر الله تعالى شفاء وذكر الناس داء . . . وقيل :

إذا مرضنا تناوينا بذكركم وترك الذكر أحيانا فننكس

الأربعون : أن الذكر أصل موالاة الله عز وجل ورأسها ، والغفلة أصل معاداته ورأسها ، فإن العبد لا يزال يذكر ربه حتى يحبه فيواليه ، ولا يزال يغفل عنه حتى يبغضه فيمأديه .

قال الأوزاعي : قال حسان بن عطية : ما عادى عبد ربه بشيء أشد عليه من أن

يكبره ذكره أو من يذكره، فهذه المعادة سببها الغفلة، ولا تزال بالعبد حتى يكبره ذكر الله، ويكبره من يذكره، فحينئذ يتخذ الله عدواً كما اتخذ الذاكر ولياً.

الحادية والأربعون: أن الذكر سند بين العبد وبين جهنم، فإذا كانت له إلى جهنم طريق من عمل من الأعمال كان الذكر سداً في تلك الطريق، فإذا كان ذكراً دائماً كاملاً كان سداً محكماً لا ينفذ فيه، وإلا فيحسبه.

الثالثة والأربعون: أن جميع الأعمال إنما شرعت إقامة لذكر الله تعالى، والمقصود بها تحصيل ذكر الله تعالى. قال تعالى: ﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِلذِّكْرِ ﴾. يقول الحسن البصري إمام التابعين: أحب عباد الله إلى الله أكثرهم ذكراً وأتقاهم قليلاً.

وقال ذو النون المصري: ما طابت الدنيا إلا بذكره ولا طابت الآخرة إلا بعبه ولا ضاقت الجنة إلا بزيارته.

يقول أبو سعيد الخراساني رحمه الله: إن الله تعالى جعل بأرواح أوليائه التلذذ بذكره، والوصول إلى قربه، وجعل بأبدانهم النعمة بما نالوه من مصالحهم، وأجزل نصيبهم من كل كائن، فغيث أبدانهم عيش المجانين (أهل الجنة) وعيش أرواحهم عيش الربانيين.

وبعد بيان هذه القوائد - المختارة - من التي أفاض الله بها على قلب صانعها، نلتقي مع القرآن الكريم فنصل زحفاً المقدس بآياته البينات من سورة الحج.

قال تعالى: ﴿ وَمَنْ النَّاسُ مِنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَرِيدٍ. كَتَبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مِنْ تَوَلَّاهُ فَإِنَّهُ يَضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ ﴾ [الحج : ٣ - ٤]. هاتان الآيتان الكريمتان يوضحهما في هذا النسق الرتيب تدلان دلالة قاطعة على أن من الناس فريقاً طبع على الجدال الباطل والمقصومة الكاذبة والمراء بغير حق ولو كان ذلك في حق الله.

ومع ذلك فإن الله لا يجعل كمجلة أحدنا إن الله يجمل للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته. قال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ كَذَبُوا بآيَاتِنَا مستدرجهم من حيث لا يعلمون وأملهم ثم إن كيدى متين ﴾.

وروى الإمام البخاري ومسلم عن رسول الله ﷺ أنه قال: « لا أحد أصبر على أدنى سمعه من الله عز وجل أنه ليشرك به ويجعل له الولد ويعاقبهم ويرزقهم ».

ما أفتق الجدال إذا لم يكن المقصود به الوصول إلى الحق، وما أشد قبحه إذا كان بغير علم بأن كان مبنياً على الجهل، وأعدى أعداء الإنسان جهله، وما أشد شناعته إذا كان بغير هدى بأن كان مبنياً على ضلال وبعد عن الحق.

وما أشد جرمة إذا كان اتباعاً لكل شيطان مرید من شياطين الإنس والجن، وأشد هذا كله أن يكون جدلاً في الله من بعد ما استجب له وظهرت آياته في الآفاق والأنفس، وما أخطر الطريق إذا كان الجدال سبباً وراء الشيطان، كتب عليه أن كل من تولاها واتخذها ولياً ومرشداً فإنه يضلّه ضلالاً بعيداً في الدنيا، ويهديه إلى عذاب السعير [النار الشديدة] في الآخرة: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ ﴾ [إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدواً إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير ﴾.

جاءت هاتان الآيتان بعد قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ تَرَوْنها تلھل كل مرصعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد ﴾ لتفيد أن من الذين يجادلون في الله ناساً يجادلون في وقوع البعث وبهاندلون ويكابرون.

قال تعالى: ﴿ خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ نَظْفَةٍ فَاذًا هُوَ خَصِيمٌ مِين ﴾.

وقال جل شأنه مبيناً خصومة ذلك الإنسان العبد في قوله: ﴿ أَوَلَمْ يَرِ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نَظْفَةٍ فَاذًا هُوَ خَصِيمٌ مِين وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسَى خَلْقَهُ قَالَ مِنْ بَحْثِ الْعِظَامِ وَهِيَ رَمِيمٌ قُلْ يَحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾.

روى الإمام البخاري رضى الله عنه قال: حدثنا أبو الهيثم حدثنا شعيب حدثنا أبو الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة رضى الله عنه عن النبي ﷺ قال: « قال الله تعالى: كذبني ابن آدم ولم يكن له ذلك وشتمني ولم يكن له ذلك فأما تكذيبه إياي ففقر له لن يعيدني كما بدائي وليس أول الخلق بأهون علي من إعادته، وأما شتمه إياي ففقوله اتخذ الله ولداً وأنا الأحد الصمد لم ألد ولم يكن لي كفواً أحد ».

الدليل الأول :

قياس الإعادة على البدء وذلك في قوله تعالى : ﴿ فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقه ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ونقر في الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى ثم نخرجكم طفلاً ثم ليبلغوا أشدكم ومنكم من يتوفى ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئا ﴾ .

الدليل الثاني :

قياس البعث على نبات الأرض فإن بين الإنسان وبين النبات صلة قوية . قال تعالى : ﴿ وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنت من كل زوج بهيج ﴾ .

وصفوة القول أن الله الذي بلغت قدرته شأواً لا حدود له ، والذي خلق الإنسان من العدم قادرٌ على أن يُعيدَه بعد أن تُتفَرَّقَ أجزأؤه ويفنى جسده وهذا قياس الأول أى قياس الأدنى على الأعلى فالذى أوجد من العدم قادرٌ بالأولى على أن يعيد بعد الإيجاد . ثم إذا انتقلنا إلى النموذج الثانى من الأدلة وهو القياس على النبات وحدهما الأرض الميتة الهامدة الساكنة سرعان ما ينزل عليها الماء فتحيا بالنبات ، وما النبات والإنسان إلا كائنات حية نشترك في صفات كثيرة وأطوار عدة .

أدلة أخرى

وقد خشد القرآن الكريم آيات بيّنات لهذه المعركة التي دارت رحاها بين العقيدة المؤمنة والأخرى الحاحدة ، وكلها تدور حول قضية البعث ، وهذه الأدلة آيات ناطقات بعظمة الله وجلال إبداعه في كونه ، وبعد حشد الأدلة يذكر البعث ويقرره . من ذلك قوله تعالى في سورة الرعد : ﴿ المر . تلك آيات الكتاب والذي أنزل إليك من ربك الحق ولكن أكثر الناس لا يؤمنون . الله الذي رفع السموات بغير عمد ترونها ثم استوى على العرش وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى

البعث حق

﴿ يا أيها الناس إن كنتم في ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقه ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ونقر في الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى ثم نخرجكم طفلاً ثم ليبلغوا أشدكم ومنكم من يتوفى ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئا وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنت من كل زوج بهيج ذلك بأن الله هو الحق وأنه يحيى الموتى وأنه على كل شيء قدير وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من في القبور ﴾ .

لما ذكر الله تعالى أن هناك فريقاً من الناس يجادل في الله بغير علم ويتبع كل شيطان مريد أعقب ذلك بذكر الأدلة على البعث بعد الموت حتى يقطع الجدل الذي تلوكه السنة المكابرين الماحدين فقال : ﴿ يا أيها الناس ﴾ وهذا نداء للبشرية جمعاء ﴿ إن كنتم في ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب ﴾ ثم بعد ذكر هذه الآية الواضحة البينة ذكر خمس نتائج أنتجها الآية :

الأولى : ذلك بأن الله هو الحق .

الثانية : أنه محيى-الموتى .

الثالثة : وأنه على كل شيء قدير .

الرابعة : وأن الساعة آتية لا ريب فيها .

الخامسة : وأن الله يبعث من في القبور .

أدلة البعث

ومن يقرأ آية البعث يجدها قد اشتملت على نموذجين من الأدلة :

فحكم عليه بالكفر لإكباره البعث : ﴿ لكن هو الله ربي ولا أشرك برى أحدا ﴾ [سورة الكهف] .

إن لما في آيات سورة الرعد عجبا عندما نتأمل القدرة الفائقة ، عندئذ لا يمكن أن يكون للشك سبيل في قلوب ذوى البصائر : ﴿ الله الذى رفع السماوات بغير عمد ترونها ثم استوى على العرش وسخر الشمس والقمر كل يجرى لأجلسمى بدير الأمر يفصل الآيات لعلمكم ببقاء ربكم توقنون ﴾ [سورة الرعد] .

إن السماوات عالم عظيم يدهش العقول : ﴿ ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح ﴾ فسادا يقول العلم في هذا العالم البديع الصنع ؟

إننا نسوق نبذة بسيمة مما قاله العلم في هذا الكون لا تزيد عن كونها شعاعا متسللا من حنايا النافذة : ﴿ قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي ولو جئنا بمددا ﴾ [سورة الكهف] .

عظمة الكون

جاء في كتاب (العلم في خدمة الدين) للباحث محمد عاطف البرقوقى ما نصه : إذا كان الإنسان قد بهرته الأرض واتساعها ، ولم يكشف عن جميع نواحيها إلا بعد آلاف السنين ، ولم يصل إلى القمر إلا في القرن العشرين (القمر الصناعى) ، وكان لوصوله مدى عظيم ملاء الأسماع من إذاعات العالم وأشتع الأبصار من صوره ، ومع ذلك فإن القمر الصناعى الأول لم يزن أكثر من ١٨٤ رطلا ، ثم زاد القمر الثانى إلى ٥٠٨ رطلا ، وبلغ في سنة ١٩٦٠ عدة أطنان ، فاین هذا من وزن القمر الطبعى ؟ بل ما كان يصح إطلاقا تسمية هذه القبة الصغيرة قمرا على الإطلاق ، وأین هذا من وزن الأرض ؟

وأین وزن الأرض بالنسبة للشمس التى يبلغ وزنها ٣٣٣٣٣٣ مرة من وزن الأرض ، ومع ذلك فهناك فى الكون بلايين النجوم وشمسا ما هى إلا نجم من

بدير الأمر يفصل الآيات لعلمكم ببقاء ربكم توقنون . وهو الذى مد الأرض وجعل فيها رواسى وأنهازا ومن كل الثمرات جعل فيها زرجين اثنين يغشى الليل النهار إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون . وفى الأرض قطع متجاورات وجنات من أعقاب وزرع ونخل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض فى الأكل إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون ﴾ [الرعد : ١ - ٤] .

بعد حشد هذه الأدلة البينة بعرض القرآن لقضية البعث يقول : ﴿ وإن تعجب فعجب قولهم إذا كنا ترابا أنا لنخلق جديدا أولئك الذين كفروا بربهم وأولئك الأغلال فى أعناقهم وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾ [الرعد : ٥] .

وكأننى بالقرآن الكريم يلتقى باللائمة على هؤلاء الذين اتضحتم أمامهم الأدلة المنصوبة فى عالم السماء والأرض ، كيف يسألون هذا السؤال العجيب ؟ وهم يعلمون علم اليقين أن الآيات على قدرة الله تحيط بهم ، من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم .

كيف يسألون هذا السؤال وهم يعتقدون أن الذى أخبر بالبعث بعد الموت هو الذى نصب الآيات فى الآفاق والأنفس ، ومن هنا فقد حكم على هؤلاء الجاحدين بثلاث أنبياء : ﴿ أولئك الذين كفروا بربهم وأولئك الأغلال فى أعناقهم وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾ [الآية السابقة] .

نعم إن إنكار البعث كفر بالله لأنه تكذيب لإخبار الله به فى القرآن . واستمع إلى قول هذا الرجل الذى قص القرآن قصته مع صاحبه وهو يخاوره ، والذى جاء فى سورة الكهف : ﴿ واضرب لهم مثلا رجلين جعلنا لأحدهما جنتين من أعناب وحففناهما بنخل وجعلنا بينهما زرعا . كلنا المجتنبين أنت أكلها ولم تظلم منه شيئا وفجرنا خلالهما نهرا . وكان له ثمر فقال لصاحبه وهو يحاوره أنا أكثر منك مالا وأعز نفرا . ودخل جنته وهو ظالم لنفسه قال ما أظن أن تبيد هذه هبدا وما أظن الساعة قائمة ولئن رددت إلى ربي لأجدن خييرا منها مثقيا ﴾ .

فماذا قال له صاحبه ردا على قوله : ﴿ وما أظن الساعة قائمة ﴾ .
﴿ قال له صاحبه وهو يحاوره أكفرت بالذى خلقك من تراب ثم من نطفة ثم سواك رجلا ﴾ [سورة الكهف] .

النجوم. وإذا تدبرنا فستب كيرة لخم من الأرض، فقل قوتها رعة أن الإنسان
يحمه وعمره م. يصل إلى جزء من مليون من مسافة بين نجمين.

والعلم بعد كشفه للمظار، وكان أن منظار كشفه العالم الإيطالي (جاليليو)
(١٦٤٢ إلى ١٦٤٢)، وتصورت أساطير بعد ذلك فتوقفت فوراً، وإن كان الإنسان
يستطيع بالنظر إلى السماء ليلا يفتن الخردة أن يشاهد ٢,٠٠٠ نجم، فإنه بعد كشف
النافير استطاع أن يشاهد ٨٠ مليون نجم، ثم بطرق علمية أخرى وخاصة بالتصوير
العلمي استطاع أن يدرك وجود ١٥٠ مليون نجم، وما حتى كان أعظم، والواقع
أنه يوجد أضعاف هذا العدد من النجوم في الكون، والنجوم والكواكب موزعة في
الفضاء عاصم مثل الطيور، تطير في الفضاء أسراباً، والأرض والقمر والمشتري والزهرة
والشمس وغيرها تكون مجموعة هي المجموعة الشمسية، ويوجد عدد عظيم من
المجموعات المشابهة في الكون.

فالأرض ليست إلا واحدة من المجموعة الشمسية، والمجموعة الشمسية ليست
إلا واحدة من وحدات المجموعة الخرية، فالأرض على عظمتها واتساعها، والتي بهرت
الإنسان ما هي إلا جزء صغير من الكون العظيم.

ولكى أبين لحضراتكم اتساع الكون أقول أن البعد بين الأرض والشمس يبلغ
(٩٢,٨٧,٠٠٠) ميل، وهي مسافة كبيرة كما نرون، ولكن هذا البعد الكبير ليس
إلا جزءاً صغيراً من أبعاد تفوقه كثيراً بين الأرض والنجوم البعيدة.

ولكى أصور لحضراتكم عظمة هذه الأبعاد ألبأ إلى طريقة أخرى هي طريقة سرعة
الضوء: إذ كثيراً ما نلجأ إلى تصوير المسافات البعيدة بالسرعة فنقول مثلاً: إن المسافة
بين القاهرة والاسكندرية تبلغ ثلاث ساعات بالقطار السريع، وأن المسافة بين المنزل
والخطة تبلغ ساعة بالسيارة مثلاً. والسرعة التي سنحدها وحدة في تقدير أبعاد الفضاء،
ليست بالسيارة ولا القاطرة ولا الطائرة النفاثة والصواريخ، بل هي سرعة الضوء،
وهي أكبر سرعة معروفة في العالم. وسرعة الضوء هي أيضاً سرعة الانسك. ولكي
أوضح لحضراتكم عظمة هذه السرعة أوجه النظر عقارتها بسرعة قطار سريع يقطع في
الساعة ٦٠ ميلاً، أي بسرعة ميل واحد في الدقيقة، أو جزء من مئتين جزءاً من الميال
في الثانية.

ما خص، فلا يجمع كسر من ميل في ثانية، بل يقطع ١٨٦,٠٠٠ ميل في الثانية،
في ما يعد ٣٠٠,٠٠٠ مرة أسرع من سرعة عظمة الأرض.

وهنا حقيقة أخرى تثير عظمة هذه سرعة، وهي أن المسافة بين الشمس والأرض
وهي نحو ٩٢ مليون ميلاً كما ذكرنا، وأنشعة الشمس تصل إلى الأرض بسرعة عظمة
عظيمة، فقطع المسافة بينهما في ٨ دقائق، ٩٠ ثانية.

ولو حاول الإنسان أن يقطع هذه مسافة بضرة نقاة سرعتها ٦٠٠ ميل في الساعة
لاستغرق قطعها: لا ٨ دقائق، ولا ٨ ساعات، ولا ٨ سنوات، بل لاستغرق ذلك
نحو ١٧ سنة و٦ أشهر، وذلك بشرط أن تستمر سرعتها هذه بدون توقف ليل نهار،
وأن هي الطائرة التي تسير سنوات دون توقف حتى للزود بالوقود؟

فما أعظم سرعة الضوء وما أبلغ تلك السرعة الضوئية الكونية، ألا تدل على قدرة
الله تعالى عز وجل... نعم: تدل وتدلل على عظمة بديع السموات والأرض
شبحاً.

والشمس قريبة إلى الأرض بالنسبة إلى النجوم الأخرى، فإن كانت أشعة الضوء
تصل إلى الأرض من الشمس في نحو ٨ دقائق، فقد أثبت العلم أن هناك نجوم ما تبع
عنا بملايين السنين الضوئية.

وقد اتخذ العلماء البئة الضوئية وحدة تقدير المسافات الكونية، تلك المسافات
الكبيرة بين النجوم، ولتصوروا عظمة هذا الكون أقول: إن رحلة حول الأرض يقوم
بها الإنسان تستغرق أياماً أو ساعات أو أشهراً، ولكن الانسك يقطعها في أقل من
٧/١ ثانية وأقرب نجم إلينا بعد الشمس يصل ضوءه في ١٥,٠٠٠ سنة، ويعتقد العلماء
أن هناك نجوم ما يصل إلينا ضوءها في ألف مليون سنة ضوئية.

وقد أثبت العلم أن النجوم وكل ما في الوجود يسبح في الفضاء كأسراب الحمام
أو الطير التي تطير بسرعة في الهواء، ولكن النجوم تطير في الفضاء بسرعة كونية هائلة،
وفها ما يدور من أقدار حول الأرض، ومن أقدار وكواكب حول الشمس. وهناك
ملايين من الناصم أو الخرات، وفها ما فيها، وكلها تسبح في الفضاء في نظام وتسير
من صنع وإبداع الله تعالى العظيم: لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل
سابق النهار وكل في فلك يسبحون كما في: ٤٠: ١.

والتأمل في هذا الكون العظيم تأمل العلماء والحكماء ، لا يملك إلا أن يسجد لله خشوعاً وتحيلاً وتقديراً لعظمته وجلاله : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ [فاطر : ٢٨] .

وتبارك الذي له ملك السموات والأرض وما بينهما وعنده علم الساعة وإليه ترجعون . قال الله تعالى : ﴿ وَلِي الْأَرْضُ قُطْعٌ مُتَجَاوِزَاتٍ وَبُتُكَاتٍ مِنْ أَعْيَابٍ وَزُرُوعٍ وَنَحِيلٍ صَوَانٍ وَغَيْرِ صُنُوفٍ يُسْقَى بِمَاءٍ زَاجِدٍ وَنُقُضْلٍ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأَكْلِ إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [الرعد : ٤] .

آية كبرى من آيات الله في المملكة النباتية ، إنه الجلال والجمال والكمال . إن عالم النبات يمثل نوعاً كبيراً من أنواع الإعجاز الإلهي في هذا العالم ، فالذي أحيا الأرض الموت وأنبث فيها من كل شيء موزون ، ومن كل زوج متجمع ، قادر أن يبعث الأجساد بعد فائها وتفرق أجزائها ، وما الإنسان إلا عضو في المملكة الحيوانية وبينها وبين المملكة النباتية عظيم شبه .

وليبيان هذه الحقائق نستمتع إلى صورت العلم في بيان رائع ، وحقائق نافذة ، تلهم البناء والعرفان على الخالق البديع : الذي أحسن كل شيء خلقه .

حديث العلم

جاء في كتاب (دلائل الحق في عظمة الخالق) للدكتور عزت محمد خيرى قوله تعالى : ﴿ إِنْ اللَّهَ فَالْقَ الْحُبِّ وَالْوَبَى يَخْرُجُ الْحَقُّ مِنْ الْمَيْتِ وَيَخْرُجُ الْمَيْتُ مِنَ الْحَقِّ ذَلِكَ اللَّهَ فَالَى تَوْفِكُونَ ﴾ [الأنعام : ٩٥] .

بعدما ذكر المؤلف هذه الآية الكريمة ، قال : تنوع صور الحياة وتشكال ألوانها ، وتعدد أوضاعها ، وتكشف خواصها ، ويدأب العلماء على تقصى (معرفة وكشف) أسرارها ، والتعرف على أحوالها ومتابعة أطوارها ، ولكن بقي للحياة سرها الأعظم وهو سر الوجود : ﴿ وَمَنْ النَّاسِ وَالْدُّرَابِ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلَفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنْ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴾ [فاطر : ٢٨] .

وإن كل ما نعلمه عن الحياة في مختلف صورها ، يتضمن الكثير من التفاعلات الكيميائية ، منها البسيط ومنها المعقد ، ومنها ما زال غير معلوم وإن كان ملموساً محسوساً .

ولعل من أبرز ما يميز الكائنات الحية على الجماد ، أنها نباتات كانت أو حيوانات أو إنساناً ، فقد احتضنت بالقدرة على النمو والتكاثر ، وإن نتاج كل نوع منها له من دلائل التماثل ما يجعل من السير نسته أن نفس السلسلة من الكائنات الحية ، وتعدد السلالات وتختلف صفاتها وقد تشابه فيما بينها في قليل أو كثير ، وإن عمليات النمو والتكاثر تتضمن تفاعلات كيميائية وأهمها تلك التي تحدث أثناء تكوين الأجنة واكتمال نموها ، وأن نمو كائن جديد يمكن أن يحدث خلال جزء صغير من طور الحياة في الحيوان ، أو قد يستغرق نموه طوال الحياة .

واستشهد المؤلف بقوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ [النساء : ١] .

وللنبات والحيوان بصفة عامة القدرة على استيعاب بعض المواد كالغذاء والماء وإدخالها في تفاعلات كيميائية ، بصاحبها عادة انطلاق للطاقة وامتصاص لبعض النواتج وتخلص من البعض الآخر ، وتسمى عملية الاستفادة الكائن بالغذاء الذي يأخذه بعملية الأيض أو التحلل الغذائي .

ومن خصائص الكائنات أنها تستجيب للأجواء المحيطة بها ، وتكيف بها ، وتعامل مع بعضها أو كلها ، فقد يسمو النبات في اتجاه بأشعة من ضوء أو طاقة ، كما أن من الحيوان ما تقوده حاسة الشم فيسير وفقاً لمدى قوة تأثير رائحة غذاء يفضلها ويميزه على حواسه ، وما توجهه إليه غرائزه تبعاً لذلك .

ولعل المشكلة العظمى التي ما زالت تواجه العلم والعلماء ، وتستحث البحث والفحص والدراس : هي تعريف (الكائن الحي) تعريفاً دقيقاً ، وما نالنا بالنسبة لتكوين أبنسجه وحلاياه وتوصيف العمليات البيولوجية والكيميائية والحسية والعصبية فيه ، ولعل هذه الحقيقة يمكن فهمها وإدراك ما بعدها إذا علمنا أن المجلد العلمي ظل فترة طويلة يناقش ويبحث في الشد والحذب حول أبسط أنواع المادة ، فيزيوسات النبات

وتتكون الخلية من تركيب دقيق التنظيم ، يتألف من حدار الخلية ، وهو رقيق جداً .
 يبلغ سمكه بضع مائة من وحدات الانغستروم (الانغستروم = جزء من مائة مليون من
 السنتيمتر) وفي داخل هذا الحدار يوجد قوام شبه سائل يتضمن السيتوبلازم وغيره
 من المركبات ، وتتكون بعض الكائنات الأخرى من تجمعات كبيرة من الخلايا قد تعدد
 أنواعها في الكائن الواحد .

فمثلاً تتكون العضلات وحدايان الأوعية الدموية والأنسجة الضامة والأعصاب
 والجلد وغيرها من أجزاء جسم الإنسان من خلايا مترابطة مع بعضها البعض بنظم
 رتيب وتركيب محدد .

وبالإضافة لهذه الخلايا توجد خلايا أخرى تسيح في سوائل الجسم وتنقل من جزء
 إلى آخر .

ومن أهم هذه الخلايا كرات الدم الحمراء وهي على هيئة أقراص مسطحة ، يبلغ
 قطر كل منها حوالي ٧٠ ألف وحدة إنجستروم وسمكه حوالي ١٠ آلاف وحدة ، وعدد
 الكرات الحمراء كبير جداً يبلغ في الشخص البالغ ما يقرب من خمسة ملايين في الملييمتر
 المكعب من الدم .

فإذا ما علمنا أن جسم الإنسان يحتوي على ما يقرب من ٥ لترات من الدم ، فإن
 عدد الكرات الحمراء يبلغ ٢٥٠٠٠ مليار في الدم ، ويحتوي جسم الإنسان كذلك على
 عديد من الخلايا الأخرى بعضها يصل قطره إلى حوالي ١٠ آلاف وحدة إنجستروم
 كخلايا الأعصاب ، وهذه تمتد ما يقرب من ١٠٠ سنتيمتر من الأطراف إلى قمة العمود
 الفقري ، ويبلغ عدد الخلايا في الجسم حوالي ١٠ مليون خلية .

هذا ولا يتكون الجسم البشري من الخلايا فقط ، ولكنه يحتوي كذلك على العظام ،
 وهذه تعتبر مخلفات لخلايا الصاعدة للعظام ، وتتكون العظام من مركبات غير عضوية
 وهي فوسفات الكالسيوم والهيدروكسيدية و كبريتات الكالسيوم ومركب عضوي يسمى
 الكولاجين وهو مادة بروتينية .

وبالإضافة لذلك يحتوي الجسم على السوائل وهي : الدم واللعاب ، وسوائل أخرى
 تفرزها بعض الأعضاء مثل اللعاب والعصارات الهضمية ، وتشتمل هذه السوائل على

شيء يظن أن فيها حياة ، فقد تبين أن لهذه الفيروسات القدرة على إحداث صورة بسيطة
 للتكاثر ، ألا وهي الانقسام إلى كائنات مبنية مع الفيروس الأصلي فمثلاً تماماً ، فمثلاً
 في حالة فيروس ورق الطماطم وجد أن الفيروس الواحد يستطيع أن يتحول بعض خلايا
 ورقة الطماطم إلى عدة كائنات هي أساساً وحدات متكاثرة منه ، إلا أنه قد ثبت أن
 هذه هي صورة الحياة الوحيدة التي توجد في الفيروسات النباتية بصفة عامة ، وتظهر
 وكأنها هي إحدى نماذج تحول كائن يرحى إلى كائن حي ، ولكن هذه الكائنات لا
 تشتمع بأي صفة أخرى من صفات الحياة ، فهي لا تنمو ولا تستوعب غذاء ، ولا
 تمثل الغذاء ، كما أنها لا تستجيب للمؤثرات الخارجية بالطريقة التي تحدث في الكائنات
 الكبيرة النامية .

ويبقى بعد ذلك سؤال هام ما زال يجير العلماء وهو : هل تعتبر هذه الفيروسات
 كائنات حية إذا كان الكائن الحي هو ذلك الذي يقدر على القيام بعمليات التمثيل الغذائي
 (الأيض) والتكاثر والنمو ؟ فإن الفيروسات ما هي إلا جزيئات كيميائية بروتينية معقدة
 التركيب ، يبلغ وزنها الجزيئي ما يقرب من بضع عشرة مليون وحدة ، وأن لها من
 التركيب الجزيئي ما يسمح لها بحفر بعض العمليات الكيميائية في الأوساط المناسبة تستطيع
 بموجبها تكوين جزيئات مماثلة لها تماماً ، وهذا هو - حتى الآن - التفسير المتعارف عليه
 بين جمهور العلماء والباحثين ، وبالتالي فلا يمكن أن نسمي ما يتوصل إليه بعض
 العلماء - مهما جلى (عظم) شأن ما يتوصلون إليه من أمثال هذه التحولات التي
 تظهر إحدى الصور غير المكتملة للحياة - خلقاً لحياة أو استحداثاً لها .

هذه بعض فيروسات النبات ، أما فيروسات الحيوان وهي التي تنمو على أنسجة
 الحيوان ، فقد تبين أن لها تركيباً محدداً ، وهي أكبر كثيراً من فيروسات النبات ، إذ
 يبلغ وزنها الجزيئي بضعه آلاف مليون وحدة ، كما أنها تمثل الحياة تمثيلاً متكاملًا ، من
 أهم خصائصه النمو والتكاثر ، وقد وجد أن الكثير من الكائنات الدقيقة كالحماض
 والبكتريا أحادية الخلية لها هذه الخواص .

وقد تكون الخلية محدودة الحجم بحيث لا ترى إلا بالميكروسكوب (المجهر) ، وهذه
 يبلغ قطر كل منها حوالي جزء من عشرة آلاف جزء من السنتيمتر ، أو قد تكون من
 الكبر بحيث يبلغ قطرها حوالي المليمتر أو أكبر .

عديد من المواد الكيميائية ، ويتحدد تركيب الخلايا بتركيب خلايا الجدران بصفة خاصة ففي النبات تتكون الخلايا أساساً من السليلوز السكري ، وفي الحيوان والإنسان يمثل البروتين الإطار الأساسي لتكوين الخلايا وجدرانها على حد سواء .

فمثلاً تحتوي كل من الخلايا الحمراء في الدم على ٦٠٪ من الماء ، ٥٪ من مواد متنوعة ، مضافاً إلى ذلك ٣٥٪ من الهيموجلوبين ، وهو مركب بروتيني يحتوي على الحديد ، وزنه الجزيئي ٦٨ ألف وحدة ، ويتميز بخاصية التفاعل الانعكاسي مع الأكسجين ، وبالتالي تنظم امتصاص الأكسجين وتفاعلاته في الجسم ، وبهذه الخاصية يمكن للدم أن يتحد مع مقادير كبيرة من الأكسجين في الرئتين وينقل بالتالي الأكسجين إلى الأنسجة فيؤكسد المواد الغذائية ومكونات الجسم الأخرى محدثاً الطاقة اللازمة لدفع الحياة وحفظها في الجسد .

هذا ينقض من ككل عن عظمة الخلق وقدرة الخالق الذي وهب الحياة للكائنات وحفظها عليهم ، وخلق من أنواعها وأصنافها وأشكالها بأمر كن فيكون ، وإن خلقه للبشر - أرقى أنواع المخلوقات - دليل على إعجاز وقدرته وقبيل في قوله تعالى : ﴿ وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحه إلا آمنا أمثالكم ما فرطنا في الكتاب من شيء ثم إلى ربهم يحشرون ﴾ [الأنعام : ٣٨] .

الخلية وحدة الحياة

وبعد هذا البيان بحدثنا المؤلف عن الخلية فيقول :

(سبحانه الله الخالق المصور ، القادر المانع الرزاق الوهاب ، يتجلى في خلقه ، ويفيض في نعمائه ، ويربط بين مخلوقاته ، ويوثق الصلة بين موجوداته ، وإذا تأملنا في خلق الكائنات الحية نباتاً أو حيواناً أو إنساناً ، لمسنا وحدة الخلق ^(١) ووجدناها

^(١) بمعنى أن وحدة الخلق تدل على وحدانية الخالق لتوحد سبحانه . يقول : ﴿ يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون . الذي جعل لكم الأرض فرماً ولساء بناء في البرية : ٢١ ، ٢٢ . وينظر تفسيره في طلائع القرآن] .

جميعاً ترتبط ببعضها البعض ، ويكون الذي تعيش فيه من خصائص التكوين ومقومات الحياة . فالشمس والنجوم تشرق وتغرب وتنتع الطاقة ، والسماء تنزل الماء فيأخذ النبات من الماء والصورة والطاقة ما يوقده ^(٢) . ويستخدم منها في عمليات التمثيل الغذائي والأيض النباتي أو للافاد ما يخرجه بانو د غذائية ويخلصه من المواد الضارة ، والحيوان يأخذ من النبات غذاء والإنسان يأخذ من النبات والحيوان غذاء وكساء ومنافع أخرى عدة ، يقول الله تعالى : ﴿ وأنزلنا من السماء ماء بقدر فأسكناه في الأرض وانا على ذهاب به لقادرون . فأنشأنا لكم به جنات من نخيل وأعناب لكم فيها فواكه كثيرة ومنها تأكلون ﴾ [المؤمنون : ١٨ - ١٩] .

وإذا تأملنا مرة أخرى في الكائنات الحية وجدنا أنها جميعاً يتكون كل منها من وحدة أو وحدات نباتية تسمى الخلية ، ورغمما عن أنه قد تم التعرف حتى الآن على ما يقرب من ٤٠٠ ألف فصيلة نبات .

وضعف هذا العدد من فصائل الحيوان ، فإن خلايا جميع هذه الأنواع المتعددة لها الكثير من الصفات التشابهية . ولكن التعبير عن تركيب مختلف أنواع الخلايا بما يسمى بالتركيب الهودجي إذ تتكون كل خلية من غشاء وستوبلازم ونواة ، وكان يطلق اسم البروتوبلازم على كل المادة الحية في الخلية ، إلا أنه بعد التعرف على العديد من المكونات أصبح لهذا الاسم أهمية تاريخية فقط ، ويحتوي الستوبلازم على دقائق عضوية مختلفة من بينها ما يسمى (الميتوكوندريا والليزوزومات والميكروزومات والستروزومات) كما يحتوي الستوبلازم على قنوات دقيقة جداً تسمى قنوات الاندوبلازم ، وكذلك جسيمات جولجي .

والميتوكوندريا هي الدقائق العضوية التي تحدث عندها تفاعلات الأكسدة في الخلية . أما الليزوزومات فهي مواقع عمليات التمثيل (التحلل المائي) فيها تكون البروتينات في الميكروزومات وتساعد السيروزومات عملية انقسام الخلية .

وقد تبين من نتائج البحوث والدراسات العملية أن القوات الموجودة في الخلية هي بمثابة أغشية داخلية تربط بين غشاء الخلية وغشاء نواة الخلية ، نينا تعمل حسيمات جولجي على تركيب غشاء خلية .

^(٢) يوقده (أي يكفه) أي جمعه بسد . ومعنى : فأنشأنا نظيرة الله تعالى .

ثم تخرجكم طفلاً ثم لنبلعوا أهلكم ومكهم من يوفى ومكهم من يوفى إلى أرضي العبر لكيلا يعلم من بعد علمه شيت ونرى "الأرض هامة فإذا أزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنت من كل زوج بهيج ذلك بأن الله هو الحق وأنه يحيى الموتى وأنه على كل شيء قدير يا أيها الذين آمنوا

وحيي شيت يعني - من مركبات شيت تدخل في تكوين الحية هي مواد كيميائية يمكن تحضيرها بسري في بعض وحفظها على رفوفه ، ولكن العجب أنها عندما تنظم بأمر خالقها وتنقسم ما يكفي من الطاقة تدب فيها الحياة ، إنها من كدان الخلق الواحد الأحد القيوم العزيز القدير سبحانه وتعالى .

وتتميز جميع الخلايا الحية بخصائص مشتركة - أيأ كان مصدر هذه الخلايا - تميزها عن المادة غير الحية ، ومن أهم هذه الخصائص أنها تقوم بنوع عمليات الأيض ، أي أنها تأخذ المواد الخام وتخزى عليها من التغيرات ما يلزم لتكوين مركبات الحية ، وكذلك ما تحتاجه من الطاقة ثم تتخلص عن طريق عملية (إخراج) مناسبة من الفضلات التي لا تحتاجها .

وهي عمليات كيميائية وحيوية معقدة ، وتضاهي عمليات الأيض عمليات تنفس مناسبة ، وتتميز الخلايا الحية كذلك بخاصيتين أساسيتين هما (النمو) و(التكاثر) وعن طريقها يتم حفظ النوع كما تعتبران صنوان للحياة في الحلية .

ومن الصفات الهامة للحلية الحية أنها تتحارب مع الظروف البيئية المحيطة بها إما بالتأقير والرفض أو بالملامة ، وهذا أيضا من مظاهر الحياة في الخلايا ، وحتى النباتات التي تنمو تحت ظروف ثابتة خلافا للحيوان الذي ينتقل من مكان إلى آخر ، فإنها تلام نفسها مع البيئة بما يحفظ عليها الحياة ، فحدا أن بعضها يجد أغصانه لتصل الماء ليعوض ما ينقصه عن طريق الجذور .

ومنها ما يتحرك لمواجهة مشرق الشمس يمتص ما يحتاج من طاقة ، وعلى ذلك فيمكن القول أن الخلايا تمارس الحركة ، هذا وفي حالات قليلة قد تحتفظ بعض الخلايا - بصفة مؤقتة - ببعض الصفات الحية وأيس كلها ، فمثلا يمكن تعميم بعض الفيروسات وبلورتها ، وبالتالي فإنها تبدو كما لو كانت غير حية ، ولكنها إذا ما غمرت في وسط مناسب ، فإنها تنشيط تنمو وتتكاثر لديها ، وتنشأ الفروق الخاصة بين حلية

وتجلا الخلية - فيما عدا كمالات عضوية سائلة - مواد غير حية مثل البروتينات وسكريات والليبيدات والأحماض النووية أمة ، وحيية فهي عضوية لشكل ، وتشغل حجم صغيرا متناكفا ، وهي مشدودة على ترتيب حصرها حية وفيه الحية المتألدة عنها .

وتحتوى البواة على بوية صغيرة وحيات صغيرة يضل عليها اسم كروماتيدات ، ويعتقد أن البوية تسهم في عملية التحكم في تكوين البروتينات :

التكوين الكيميائي لخلية نموذجية :

يتكون غشاء الخلية أساسا من مواد متراكمة من البروتينات والليبيدات تسمى (الليبوبروتين) ، أما السيترولازم فهو وسط شفاف يتراوح في قوامه بين سائل رفيع إلى هلام جامد . ويحتوى جسيمات ميكروية والميتوكوندريا غنية بالبروتين والليبيدات الفسفورية ، بينما تحتوى جسيمات جولجي على ليبيدات أصلا .

ويتألف السكر الموجود في الخلية من سكر الحليكوحين في أغلب الخلايا .

ويتكون البروتين الذي تحتويه الخلايا من فصيلة البروتينات النووية المعروفة (بالريبوز) ، ويتكون البروتينلازم بصفة عامة من ٧٥٪ من وزنه أو أكثر ماء ، كما يحتوى على الكلوريد والفوسفات والكبريتات وأيونات عناصر البوتاسيوم والصوديوم والمنسيوم والكالسيوم ، وكذلك مركبات الكبريتات وآثار بسيطة من النحاس والحديد والمنجنيز واليود ، وبالإضافة إلى ذلك توجد فيه البروتينات والسكريات والليبيدات ، ويؤدى وجود مقادير كبيرة نسبيا من البروتين في الحلية إلى اتخاذها صفات عزوانية .

هذا كله يتجمع ويتنظم في الخلية وحدة كل كائن حي ، وما الخلية إلا جسم صغير لا يرى إلا بالميكروسكوب ، حقا بها من صنع الله القادر الخلاق . وما بالبا بطريقة تجمع هذه الخلايا وترابطها ونظامها وتكاملها لتكوين الكائن الحي بمختلف فصائله وأصنافه وأنواعه ، وحداق الله تعظيم في قوله تعالى : (لا يا أيها الناس إن كنتم في ريب من البعث فإننا خلقاكم من تراب ثم من نقطة ثم من علقة ثم من مضغة علقة وغير علقة لين لكم وتقرب في الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى

وأخرى من نوع آخر من اختلاف المركبات المكونة لها من حيث المقادير النسبية التي توحد عليها وسرعة تفاعلها مع بعضها والتوزيع الهندسي لها ومواقعها في الخلية .
فمثلا تحتوي الكرات الحمراء في الإنسان على الهيموجلوبين الذي يشتمل على الحديد ، والهيموجلوبين هو الذي يساعد على نقل الأكسجين إلى الخلايا الأخرى في الجسم . وتحتوي الخلايا السطحية للجلد على بروتينات غير قابلة للذوبان ، ومن ثم فإنها تصلح كغشاء يضمن الجسد ويزوده بالحماية ضد الضربات أو الصدمات ، وكذلك من أضرار التعرض للمواد الكيميائية ، وتشكل خلايا الأعصاب بما يلائمها لنقل النبضات والإشارات الكهربائية ومعاطفية بينما تحتوي خلايا العضلات على مركبات تستطيع أن تتفاعل بحيث تحدث انكماشاً في الجيوبوت السيجية .

موت الخلايا :

إذا ماتت مادة حية فمعنى ذلك أنها توقفت عن القيام بأنشطتها التي تميز الحياة فيها ، ويدل ذلك على أن خلاياها فقدت صفاتها الذاتية من حيث التكوين والوظيفة ، إما لتغير جذري في أعدادها أو صفاتها أو في مكوناتها البروتينية . وقد يكون هذا التحول نتيجة لدورة الحياة في الخلية أو لتغير في الظروف المحيطة بها أو لكلا العاملين أو قد يكون بسبب عوامل أخرى مما يختلف حسب الأحوال ، فمثلا يحدث للإنسان أثناء حياته العادية أن تموت بعض خلاياه متحولة إلى مواد نافعة غير حية فتتحول بعض الخلايا السطحية في الجلد إلى أجزاء ميتة من الجلد أو الأظافر .
هذا وقد لوحظ حدوث تغيرات في خلايا معينة في جسم الإنسان نتيجة لتقدم السن ، فمثلا لوحظ في بعض الطاعنين في السن أن خلايا الأعصاب وهي أطول خلايا الجسم عمرا تحتوي أعدادا متزايدة من حبيبات الليبيدات نتيجة لتغيرات كيميائية مما يجعلها تفقد جزءا من النظام توريدها مما يؤدي إلى تغيرات عصبية مختلفة في مثل هذه الأحوال .

ويحدث لبعض خلايا أنسجة المفصل أن يقل محتواها من بروتين الألبومين (زلال البيض) ويصاحب ذلك ترسب الكالسيوم مما يجعلها تفقد مرونتها كما يحدث لبعض خلايا العظام أن تموت فتترك العظام هشّة ، أما خلايا العدة فتختلف درجات تغيرها مع السن .

٩٤

ومن أظهر التغيرات أن غدد الأدرينال ترسب الكولاجين نتيجة لتلاشي بعض خلاياها .
ويقل العد الليمفوسيني للدم بمرور السن ، كما تؤدي الزيادة في رواسب الكوليسترول داخل جدران الأوعية الدموية التي تصلها مما يؤدي إلى زيادة ضغط الدم ، وبالتالي إلى زيادة التعرض للجلطة الدموية ، ويحدث ذلك نتيجة لاضمحلال بعض الخلايا في هذه الأوعية .

وبعد فهنا بيان عن عظمة خالق الوجود تتجلى في وحدة الحياة الحية، والله هو واهبها ومُنظّمها ومُنظّمها في شتى المخلوقات، سبحانه القادر العزيز المتعال : ﴿ قل هو الذي أنشأكم وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلا ما تشكرون ﴾ [الملك : ٢٣] .
وبعد ، فمعمّرة للقاريء إن كنا قد أطلنا في إثبات هذه الحقائق العلمية ، لكنها توصلنا إلى حقيقة لا مراء فيها وإلى نتيجة لا يعترها شك ولا يشوبها ريب ، إن هذه الحقيقة تؤكد أن الإنسان والنبات كل منهما يمثل حقيقة لا تختلف ، ويشترك كل منهما في صفات لا تفرق ، فإذا كان النبات يحصد ثم يبلر فينبث مرة أخرى ، فأى مانع يمنع من إعادة الإنسان بعد فاته ، وأى عقبة تحول دون ذلك ؟ إذا كنا قد علمنا أن المبدى والمعيد هو الله الذي أثبت هذه الحقيقة في قوله : ﴿ والله أنبئكم من الأرض نبأنا . ثم يعيدكم فيها ويخرجكم إخراجا ﴾ [نوح : ١٧ - ١٨] .

نعم .. لقد أطلنا في ذكر الحقائق العلمية التي أثبت لنا بما لا يدع مجالا للشك وجوه الشبهة^(١) القوية بين النبات والإنسان ، مما يؤكد لنا عظمة القرآن في تعبيره عن خلق الإنسان بالإنبات ، فلم يقل تعالى : والله أنشأكم من الأرض إنشاء إنما قال : ﴿ والله أنبئكم من الأرض نبأنا ﴾ ليضع أيدنا على حقيقة كبرى تادينا بأعلى صوته ، ونقول : لم تتكروا البعث بعد الموت ؟ وما وجه إنكار ذلك ؟ وأمامكم البعث يتحقق كل يوم وكل ساعة .. بل كل لحظة في هذا الوجود الواسع الممتد الرحب .

ألست يا ابن آدم كنبات هذه الأرض ؟ ألست يا ابن آدم تضع الحية في ظلمات الأرض فتسمو كما تضع الطفلة في ظلمات الرحم فتستقل من طور إلى طور من نطفة إلى علقة إلى مضغة إلى جنين إلى طفل يأخذ طريقه في الحياة : ﴿ ما لكم لا ترجون لله وقارا . وقد خلقكم أطوارا ﴾ [نوح : ١٣ - ١٤] ؟ ألست يا ابن آدم تحصد

(١) أقول : التناقض لأن الوجود وجهاً خلقها الوجود العظمى الواحدة .

البيت من الحى ويحى الأرض بعد موتها وكذلك تخرجون . ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تتمشرون . ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن في ذلك لآيات لقوم يفتكرون . ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن في ذلك لآيات للعالمين . ومن آياته منامكم بالليل والنهار وابتغائهم من فضله إن في ذلك لآيات لقوم يسمعون . ومن آياته يريكم البرق خوفا وطمعا وينزل من السماء ماء فيحيى به الأرض بعد موتها إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون . ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره ثم إذا دعاكم دعوة من الأرض إذا أنتم تخرجون . وله من في السموات والأرض كل له قانتون . وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه وله الخلق والأصل في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم [الروم : ١٧ - ٢٧] .

البعث حق

إن قضية البعث فى القرآن جاءت مقترنة بتوحيد الله والإيمان به .
من ذلك قوله تبارك وتعالى : ﴿ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۖ فَالْتَمِسُوا رَبَّكُمْ ۚ ﴾ [النور : ٢] . وقوله جل شأنه : ﴿ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا ۖ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ۚ ﴾ [البقرة : ٦٢] إلى غير ذلك من الآيات ، ولأهمية البعث ترى أن الله تبارك وتعالى يأمر نبيه ﷺ بالقسم فى ثلاثة مواضع وكلها فى البعث .
قال تعالى : ﴿ وَاسْتَنْبِطْ عَنْهُمْ نَبَاهَهُمْ ۚ قُلْ إِي وَرَبِّى إِنَّهُ لَخَلْقٌ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ ۚ ﴾ [يونس : ٥٣] .

ويقول تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِنَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَى وَرَبِّى لَأَتِيَنَّكُمْ عَذَابٌ غَيْرُ الَّذِي تَعْلَمُونَ ۚ ﴾ [النور : ١٧] . وقال جل جلاله : ﴿ زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُخْرِجَهُمْ مِنَ دَارِهِمْ شَرٌّ مِنْ نَارِ السَّعِيرِ ۚ ﴾ [النور : ١٧] .

لنات إذا أخرج شقاءه فإرره فاستغلف فاستغوى على سوطه فاستغفده فاستغلك .
ليس ملك الموت يمتدك عندما يبلغ الكتاب أجله : ﴿ وهو القاهر فوق عباده ويرسل عليكم حفظة حتى إذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا وهم لا يفرطون . ثم ردوا إلى الله مولاهم الحق ألا له الحكم وهو أسرع الحاسبين ﴾ [الأنعام : ٦١ - ٦٢] .
أنت يا ابن آدم تذهب بالنيات بعد إستحصاده (أى : حصاده وقطعه) بمجمل .
على ظهور الأهل والنساء إلى الأجران .
أنت يذهب بك بعد موتك عمولا على خشية حدياء إلى أجران القابر .
أنت يا ابن آدم تأتى بالنوراج للدوس على النبات فدمره ؟
أنت بأتيك الدود فيدرسك فى أجران القابر ... ثم تغال بعد ذلك : (أى : أنظر وانبه) .

أنت تأخذ الحب الحصيد فيدبره فى الأرض فيخرج نباتا مرة أخرى .
أليس هذه حقيقة ملموسة لا ينكرها من كان عنده أدنى تفكير .
ألم يبت النبات بعد أن درسته النوراج ؟ فلماذا تستبعد بعثك بعد موتك ؟ وأنت تسير مع النبات طورا بعد طور ، وحالة بعد حالة ، ومرحلة عقيب مرحلة .
إنه لا ينكر هذه الحقيقة إلا من سلب عقله فأصبح لا يميز بين الليل والنهار ، ولا يجادل فى هذه القضية إلا من وضع قلبه فى أكنة وفى آذانه وقر وعلى بصره غشاوة : ﴿ وعرضنا جهنم يومئذ للكافرين عرضا . الذين كانت أعينهم فى غطاء عن ذكرى وكانوا لا يستطيعون سمعا ﴾ [الكهف : ١٠٠ - ١٠١] .

﴿ وقالوا قلوبنا فى أكنة مما تدعونا إليه وفى آذاننا وقر ومن بيننا وبيلك حجاب فاعمل إننا عاملون ﴾ [فصلت : ٥] .

سبحانك ربى يا من قلت وتوكل الحق : ﴿ والله أنبئكم من الأرض نباتا . ثم يعيدكم فيها ويخرجكم إخراجا ﴾ [نوح : ١٧ - ١٨] .

يا من قلت وتوكل الصدق : ﴿ فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون . وله الحمد فى السموات والأرض وحين تظهرون . يخرج الحى من الميت ويخرج

زوج بهيج . تبصرة وذكرى لكل عبد ميب . ونزلنا من السماء ماء مباركا فأنبتا
به جنات وحب الحصيد ، والنخل باسقات لها طلع نضيد . رزقا للعباد وأخبتنا به
بلدة ميثا كذلك الخروج ﴿ ق : ٦ - ١٠ ﴾ .

فانت ترى في هذا المشهد القرآني من سورة ق ، كيف سجل القرآن العظيم كلام
المكرين الجاحدين ، الذين ظنوا أن الرجوع والإعادة ، والإحياء بعد الموت بعيد ، فأقام
القرآن من الأدلة ما يثبت أن الإعادة أعون من البدء ، وأن الإيجاد بعد الفناء أبسر
من الخلق من العدم : ﴿ أفلا ينظرون إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها
من فروج ﴾ .

ثم يسأل القرآن : ﴿ ألم أئتم خلقا أم السماء بناها رفع سمكها فسوها وأغطيها
لها وأخرج ضحاها والأرض بعد ذلك دحائها أخرج منها ماءها ومرعاها والجبال
أرساها ﴾ .

ثم بحث على هذا السؤال في روعة وجلال : ﴿ خلق السماوات والأرض أكبر
من خلق الناس ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ .

ثم يبين أن الذين لا يعرفون هذا قوم أصيبوا بمعنى القلوب وانطماس البصائر .
فيقول سبحانه : « وما يستورى الأعمى والبصير والذين آمنوا وعملوا الصالحات
ولا المسىء قليلا ما تذكرون » .

ثم يخلص من هذا إلى نتيجة تقرر أن البحث حق لا ريب فيه على الرغم من جحود
الجاحدين ، فيقول جل جلاله : ﴿ إن الساعة لأتية لا ريب فيها ولكن أكثر الناس
لا يؤمنون ﴾ .

وبعد أن يقيم القرآن أدلة القدرة الفائقة من رفع السماء وسط الأرض : ﴿ والأرض
مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتا فيها من كل زوج بهيج . تبصرة وذكرى لكل عبد
متيب . ونزلنا من السماء ماء مباركا فأنبتا به جنات وحب الحصيد والنخل باسقات
لها طلع نضيد رزقا للعباد وأحيينا به بلدة ميتا كذلك الخروج ﴾ [سورة ق :] .
بعد ذلك يقبس البحث على هذه الآيات المشاهدة أمام العين والتي لا ينكرها عاقل
ولا يجحدوها من رزق أدنى علم ، فيقول سبحانه في كلمة موجزة المبني عظيمة المعنى :

من هنا نعلم أن الله تبارك وتعالى أكد هذه القضية توكيدا لا يخفى أى ليس
ولا غموض .

إن الله جل جلاله يبه أصحاب الأذهان الغافلة والقلوب الجاحدة إلى ما رده
المكرون من قبل فيقول : ﴿ وأقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت بل
وعدا عليه حقا ولكن أكثر الناس لا يعلمون . لبيّن لهم الذى يخلفون فيه وليعلم
الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين . إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون ﴾
[النحل : ٣٨ - ٤٠] .

القرآن والبعث

وإذا كان القرآن الكريم قد تناول هذه القضية في أعلى طبقات البلاغة والقوة فإنه
يعرض للبعث في أساليب غاية في الجلال والجمال والمظمة وقد عرضنا مشهدا في
سورة الرعد حيث قدم القرآن الأدلة القاطعة على قدرة الله في العالم العلوى والأرض
ثم عقب على ذلك بقضية البعث والتقى باللائمة على منكريها وجاحديها .

قال تعالى : ﴿ وإن تعجب فعجب قولهم إذا كنا ترابا أنما نخلق جديد ﴾
[الرعد : ٥] .

وفي سورة (ق) يعرض القرآن القضية ثم بعد ذلك يقيم الأدلة على القدرة الفائقة
التي لا يقف أمامها شيء . قال سبحانه : ﴿ ق . والقرآن والجحد . بل عجبوا أن
جاءهم منلر منهم ففقال الكافرون لهذا شئ عجب . إذا متنا وكنا ترابا ذلك رجع
بعيد ﴾ [ق : ١ - ٣] .

يرد القرآن على هذه الدعوى ردا حاسما ، فيقول تعالى : ﴿ قد علمنا ما تنقص
الأرض منهم وعدنا كتاب حفيظ . بل كذبوا بالحق لما جاءهم فهم في أمر مخرج ﴾
[ق : ٤ - ٥] .

ثم يقيم الأدلة الباهرة فيقول سبحانه : ﴿ أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها
وزيناها وما لها من فروج . والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتا فيها من كل

جدد السفينة فإن البحر عميق

ويحسن بنا ونحن أمام الوعد الحق والبعث بعد الموت ، أن نسلك بك أيها القارئ إلى طريق النجاة ، فإذا أعددت من زاد ليوم الميعاد ؟

صم عن الدنيا ، وانظر على الموت ، وأعد الزاد لليلة صبحها يوم القيامة . وخير الزاد التقوى ، وما كان عليه سيد الأنبياء محمد ﷺ من الخلق الكريم والقلب الرحيم .

اسمع إلى هذه الوصايا الغوالي ، وإلى تلك النصائح العوالي ، عن أنس رضى الله عنه عن النبي ﷺ قال : « ثلاث من كن فيه وجد بين حلاوة الإيمان : من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواها ، ومن أحب عبدا لا يحبه إلا الله ، ومن يكره أن يعود في الكفر بعد أن أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف في النار »^(١) .

وعن أنس رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان وطعمه : أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواها ، وأن يحب في الله ويخص في الله ، وأن توقد نار عظيمة فيقع فيها أحب إليه من أن يشرك بالله شيئا » [رواه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي] .

وعن أبي هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله تعالى يقول يوم القيامة : أين المتحابون بجلالي اليوم أظلمهم في ظل يوم لا ظل إلا ظلي » [رواه مسلم] .

وعنه رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « من سره أن يجد حلاوة الإيمان فليحب المرء لا يحبه إلا الله » [رواه الحاكم] .

وعن أبي هريرة رضى الله عنه عن النبي ﷺ قال : « سبعة يظلمهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله : الإمام العادل وشاب نسا في طاعة الله ورجل قلبه معلق في المساجد ورجلان تحابا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه ورجل دعت امرأته ذات منصب

(١) ينظر : فتح الباري ط سلسلة ج ١ باب الإيمان ط سلسلة

كذلك الخروج ﷻ أى الخروج من القبر بعد الموت يوم البعث مثل ذلك ، فكما ذلك الذى سبق ذكره واقع ومشاهد ، فالبعث مثله ، وكما أنكم لا تنكرون آيات الله في كونه من سمائه إلى أرضه ومن عرشه إلى فرشه ، فإن العدل والمنطق يقتضيان منكم ألا تنكروا البعث بعد الموت ، إذ أن الذى أخبر عنه هو الله الغنى المبيت المبدى العبد الضار النافع الخافض الراجع القابض الباسط الواحد الماجد الواحد القهار الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر ، الخالق البارئ المصور العزيز الحكيم العدل الرزاق ذو القوة المتين الذى إذا أراد قضى المراد وإذا حكم فلا معقب لحكمه وإذا قضى فلا راد لقضائه .

وفي سورة النبأ وهو البعث يصدر القرآن هذه السورة الكريمة بسؤال ثم يجيب عنه ويعرض بعد ذلك الأدلة على القدرة الفارقة ثم يعقب بالنتيجة ، كل هذا في سبيلك فريد وعقد نظم ، يأخذ بالألباب ، ويدهش العقول لعظمته .

اقرأ قول الله جل جلاله : ﷻ هم يتساءلون عن النبأ العظيم الذى هم فيه مختلفون كلا سيعلمون ثم كلا سيعلمون ألم نجعل الأرض مهادا والجبال أوتادا وخلقناكم أزواجا وجعلنا نومةكم سباتا وجعلنا الليل لباسا وجعلنا النهار معاشا وبنينا فوقكم سعا شدادا وجعلنا سراجا وهاجا وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجا لنخرج به حبا ونباتا وجنات ألفافا ﷻ .

ثم يخلص إلى النتيجة بعد ذلك في جلاء ووضوح فيقول سبحانه : ﷻ إن يوم الفصل كان ميقاتا يوم ينفخ في الصور فأتون أفواجا ﷻ .

كل هذا يدور في فلك السورة الكريمة التى تعرض للقضية في جلاء ووضوح وقوة وحزم : ﷻ إن يوم الفصل كان ميقاتا ﷻ .

ويؤكد هذا المعنى في قوله : ﷻ إن هؤلاء ليقولون إن هى إلا موتنا الأولى وما نحن بمسئرين فأتوا بأياتنا إن كنتم صادقين ﷻ .

ويورد القرآن على هذا الإنكار فيقول : ﷻ أهم خير أم قوم تبع والذين من قبلهم أهلكتناهم وإنهم كانوا مجرمين وما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما لآعين ما خلقناهما إلا بالحق ولكن أكثرهم لا يعلمون إن يوم الفصل ميقاتهم أجمعين يوم لا يغنى مولى عن مولى شيئا ولا هم يصرون إلا من رحم الله إنه هو العزيز الرحيم ﷻ .

ورجل فقال إلى أخاف الله ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شئها ما تتفق عليه ورجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه [رواه البخارى ومسلم وغيرهما] .

وعن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « ما تحاب رجالان في الله إلا كان أحبهما إلى الله عز وجل وأشدّهما حبا لصاحبه » [رواه الطبراني وأبو يعلى وابن حبان ورجاله رجال الصحيح] .

وعن أبي إدريس الخولاني قال : دخلت مسجد دمشق فإذا براق النبا ، وإذا الناس معه ، فإذا اختلفوا في شيء أسندوه إليه وصدروا عن رأيه ، فسألت عنه ، فقيل : هذا معاذ بن جبل ، فلما كان من الغد هَجَرْتُ فوجدته قد سبقني بالتهجير ، ووجدته يصلي فانتظرته حتى قضى صلاته ثم جثه من قبل وجهه فسلمت عليه ثم قلت له : والله إنى لأحبك لله ، فقال : آله . فقلت : آله . فقال : آله . فقلت : آله فأخذ يخبّو رداً فيجيبني إليه فقال : أبشر فإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول : « قال الله تبارك وتعالى : وجبت محبتي للمتحابين في وللمتجالسين في وللمتزاوئين في وللمتبادلين في » [رواه مالك بإسناد صحيح وابن حبان في صحيحة على شرط الشيخين] .

عن أبي مسلم قال : قلت لمعاذ : والله إنى لأحبك لعمر دنيا أرجو أن أصيبها منك ولا قرابة بيني وبينك . قال : فلا شيء ؟ قلت : لله . قال : فاجذب خُبْرِي ثم قال : أبشر إن كنت صادقا ، فإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول : « المتحابون في الله في ظل العرش ، يوم لا ظل إلا ظله ، يعطهم بمكانهم السيرون والشهداء » .

قال : ولقيت عبادة بن الصامت فحدثني بمحدث معاذ ، فقال : سمعت رسول الله ﷺ يقول عن ربه تبارك وتعالى : « حقت محبتي على المتحابين في ، وحقت محبتي على المتناصحين في ، وحقت محبتي على المتأذنين في » . هم على منابر من نور يعطهم السيرون والشهداء والصديقون [رواه ابن حبان في صحيحة ، وقد رواه أحمد في مسندى معاذ وعبادة] .

وروى الترمذى حديث معاذ فقط ونقطه : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « قال الله عز وجل : المتحابون في جلالي لهم منابر من نور يعطهم السيرون والشهداء » وقال : [حسن صحيح] .

وعن شرحبيل بن السبط أنه قال لعمر بن عتبة : هل أنت عدي حديثي سمعته من رسول الله ﷺ ليس فيه نسيان ولا كذب ؟ قال : نعم ، سمعت رسول الله ﷺ يقول : « قال الله عز وجل : قد حقت محبتي للذين يتحابون من أجل ، وقد حقت محبتي للذين يتزاوون من أجل ، وقد حقت محبتي للذين يتبادلون من أجل ، وقد حقت محبتي للذين يتصادقون من أجل » [رواه أحمد ورواته ثقة واللفظ له ، والحاكم حقه صحيح الإسناد] .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : « إن لله جلساء يوم القيامة عن يمين العرش - وكلنا يدعى الله يمين - على منابر من نور وجوههم من نور ليسوا بأنبياء ولا شهداء ولا صديقين » . قيل يا رسول الله : من هم ؟ قال : هم المتحابون بجلال الله تبارك وتعالى [رواه أحمد] .

وعن أبي هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن من عباد الله عبادة ليسوا بأنبياء يعطهم الأنبياء والشهداء » . قيل : من هم لعنا نعيم ؟ قال : هم قوم تحابوا بسور الله ، من غير أرحام ولا أنساب ، وجوههم نور ، على منابر من نور ، لا يخافون إذا خاف الناس ولا يحزنون إذا حزن الناس . ثم قرأ : ﴿ أَلَا

وقد جاء في الحكمة للإمام علي الرضا رضي الله عنه :

من نازع الاقبال في امرهم
بات بعيد الراس عن جنته

من لاعب الثعبان في كفه
هيهات ان يسلم من لسعته

من عاشر الأحمق في حاله
كان هو الأحمق في عشرته

لا تصحب النذل فتدري به
لا خير في النذل ولا صحبته

من اعتراك الشك في جنسه
وحاله فانظر إلى شيمته

من غرس الحنظل لا يرتجى
ان يجتنى السكر من غرسه

من جعل الحق له ناصراً
أيده الله على نصرته

وفي رواية للبخاري ومسلم عن أنس رضي الله عنه : أن رجلاً من أهل البادية أتى النبي ﷺ فقال : يا رسول الله متى الساعة ؟ قال : « وما أعددت لها ، قال : لا شيء إلا أني أحب الله ورسوله . قال : « أنت مع من أحببت » . قال : « ونحن كذلك ، قال : نعم ، فقرحنا يومئذ فرحاً شديداً . قال أنس : فانا أحب النبي ﷺ وأبا بكر وعمر وأرجو أن أكون معهم يومئذ يحيى إياهم »^(١) .

وعن أنس سعيد الخدري رضي الله عنه أنه سمع النبي ﷺ يقول : « لا تصاحب إلا مؤمناً ولا يأكل طعامك إلا تقي » [رواه ابن حبان في صحيحه] .

وعن علي رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « ثلاث من حق : لا يجمل الله من له سهم في الإسلام كمن لا سهم له ، ولا يتول الله عبداً فيؤليه غيره ، ولا يحب رجل قوماً إلا حشر معهم » [رواه الطبراني في الصغير والأوسط بإسناد جيد] .

(١) متفق عليه في الترمذي والبيهقي - ج ٢ ، ص ٧٩٠ .

إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴿ ١٨ ﴾ [رواه النسائي وابن حبان في صحيحه واللفظ له وهو أتم] .

وعن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله عبادة يجلسهم يوم القيامة على منابر من نور ، يقرئهم وجوههم النور حتى يفرغ من حساب الخلاق ، [رواه الطبراني بإسناد جيد] .

وعن العريضي بن سارية رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « قال الله عز وجل : المتحابون بجلالي في ظل عرشى يوم القيامة يوم لا ظل إلا ظلي » [رواه أحمد بإسناد جيد] .

وعن أنس الدرداء رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « ليحسن الله أقواماً يوم القيامة في وجوههم النور على منابر اللؤلؤ يغطهم الناس ليسوا بأنبياء ولا شهداء » قال : فبينما أعراني على ركبتيه فقال : يا رسول الله جلهم (أي : صفهم) لنا نعرفهم . قال : « هم المتحابون في الله من قبائل شتى ، وبلاد شتى ، يجمعون على ذكر الله ، يذكرونه » [رواه الطبراني] .

وروي عن أنس مغيرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن في الجنة لعملاً من ياقوت ، عليها غروف من زبرجد ، لها أبواب مفضحة تضيء كما يضيء الكوكب الدرّي » قال : قلنا يا رسول الله من يسكنها ؟ قال : « المتحابون في الله والمتبادلون في الله والمتلاقون في الله » [رواه الزبارة] .

وروي عن معاذ بن أنس رضي الله عنه أنه سأل رسول الله ﷺ عن أفضل الإيمان قال : « أن تحب الله وتبغض الله ، وتعمل لستاك في ذكر الله » . قال : وماذا يا رسول الله ؟ قال : « وأن تحب للناس ما تحب لنفسك وتكره ما تكره لنفسك » [رواه أحمد] .

وعن معاذ بن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « من أعطى لله ومنع لله وأحب لله وأبغض لله وأنكح لله فقد استكمل إيمانه » [رواه أحمد والترمذي] .

وعن أنس ذكر رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « أفضل الأعمال الحب في الله والبغض في الله » [رواه أبو داود] .

وعن عائشة رضى الله عنها أن رسول الله ﷺ قال : « ثلاث أحلف عليهن : لا يعمل الله من له سهم في الإسلام كمن لا سهم له ، وأسهم الإسلام ثلاثة : الصلاة والصوم والزكاة ، ولا يتول الله عبداً في الدنيا فيؤليه غيره يوم القيامة ، ولا يحب رجل قوما إلا جعله الله معهم » [الحديث رواه أحمد بإسناد جيد] .

وعن عبد الأعلى رضى الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ : « الشرك أخفى من ديب الدار على الصفا في الليلة الظلماء وأدناه أن تحب على شيء من الجور وتبغض على شيء من العدل وهل الدين إلا الحب والبغض ^(١) . قال الله عز وجل : ﴿ قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحبك الله ﴾ [آل عمران : ٣١] » [رواه الحاكم] .

ثمرات الحب في الله

أولاً : يتلوق حلاوة الإيمان فيسرى بهجسه البور المحمدي ، ويتغذى بليلان الإسلام فيحيا حياة السعداء .

ثانياً : يحيطه الله برحمته ، ويقيه عاديات شدائد يوم القيامة .

ثالثاً : يجلب له الأمن والسرور ، ويعد في مصاف السبعة الذين يظلمهم برضوانه وإحسانه .

رابعاً : شجرة إيمانه مورقة مزهرة مباركة كاملة .

خامساً : دليل على زيادة محبة الله ورسوله .

سادساً : برهان القبول وعنوان التوفيق .

سابعاً : زيادة درجات في الجنة بحول منازل الأبرار .

ثامناً : قلوبهم مطمئنة آمنة من الأحوال ، تتلأأ وجوههم نورا وسرورا .

(١) تفسير ابن كثير : ج ٢ ط الشعب ص ٢٥٥ آية (٣١) الحديث وعبد الأعلى قال أبو زرعة عنه : منكر الحديث .

تاسعاً : عروة الإيمان الوثقى من تمسك بها نجا .

عاشراً : يشارت الأعمال الصالحة الموصلة إلى قبول الله ، المشوبة بالإخلاص لله ، الدالة على الهداية والنجاح .

الحادي عشر : يحشر مع الصالحين .

الثاني عشر : سلوك حسن وصحة نافعة وسيرة طيبة ونية صالحة وعيشة سعيدة .

الثالث عشر : له نصيب في الخير وسهم في الأجر .

الرابع عشر : يدل على كمال الدين وصفاء السيرة والعمل المتقن وخوف الله ورعاية جانبيه واحترام كتابه وحب سنة حبيبته ﷺ .

الخامس عشر : لا يتسرب إلى من يحب لله الإشراف بالله ، لأنه يأمن عواقب أعماله ، ويضمن إخلاصه ويسلم من شوائب الإلحاد .

أَكْثَرُ مِنَ الزَّادِ فَإِنَّ السَّفَرَ طَوِيلٌ

نعم ، إن السفر طويل ، فقصم عن الدنيا ومعاصيها ، وأفطر على الموت ، وأعد الزاد لليلة صبحها يوم القيامة .

ما أطول السفر لأنه في عالم البرزخ ، وما وراء البرزخ أعنف من أن يشق (يمتحن) عيابه سبحانه : ﴿ فإذا نفخ في الصور نفخة واحدة . وحملت الأرض والجبال فدكا دكة واحدة . فيومئذ وقعت الواقعة . وانشقت السماء فهي يومئذ واهية . والملاك على أرجائها وحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية . يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية . فإما من أوتي كتابه يمينه فيقول هاتزم القروا كتابيه . إلى ظننت ألى ملاق حساييه . فهو في عيشة راضية . في جنة عالية . قطوفها دانية . كلوا واشربوا هنيئا بما أسلفتم في الأيام الخالية . وأما من أوتي كتابه بشماله فيقول يا ليتنى لم أوت كتابيه . ولم أدر ما حساييه . يا ليتنى كانت القاضية . ما أغنى عني ماليه . هلك عني

فيقال سيروا تشهدون فضائحا

وعجائبا قد احضرت وامور

وإذا الجنين بامه متعلق

خوف الحساب وقلبه مذعور

هذا بلا ذنب يخاف لهوله

كيف المقيم على الذنوب دهور

اخا الإسلام :

هلا أكثر من الزاد لطول السفر ؟

أولم تسمع ما رواه عبد الله بن مسعود من قول رسول الله ﷺ : « التائب من الذنب كمن لا ذنب له والمستغفر من الذنب وهو مقيم عليه كالستهديء بربه ومن أذى مسلما كان عليه من الذنوب مثل منابت القمل » [رواه ابن أبي الدنيا والبيهقي مرفوعاً حتى (بره)] .

وفي الحديث : « التلم توبة » [رواه الحاكم وقال : صحيح الإسناد] .

وقد مثل الحسن البصري رضى الله عنه عن التوبة النصوح فقال : هي الفرع بالقلب ، والاستغفار باللسان ، والترك بالجوارح ، والإحصار (أى : التوبة) على أن لا يعود .

وسمع سيدنا على رضى الله عنه أعرابيا يقول : اللهم إني استغفرك وأتوب إليك . فقال : يا هذا إن سرعة اللسان بالتوبة توبة الكذابين . فقال : وما التوبة ؟ قال : إن التوبة مجملها سنة أشياء : الدم على الماضي من الذنوب ، وقضاء الفرائض القائمة مع الحاضرة ، ورد المظالم واستحلال المحصوم ، وأن تعزم على أن لا تعود للذنب وأن تذيب نفسك في طاعة الله كما ربيتها في العصية ، وأن تذيبها مرارة الطاعة كما أذقتها حلالة المعاصي . والتوبة بصفتها المذكورة هي المنجية لصاحبها من العقاب ، يشهد لذلك قوله عليه الصلاة والسلام فيما أخرجه ابن عساکر عن أنس : « إذا تاب العبد أنسى الله الخفظة ذنوبه وأنسى ذلك جوارحه ومعاله من الأرض حتى يلقي الله تعالى وليس عليه من الله شاهد بذنب » .

سلطانيه. خذوه فقلوه. ثم الجحيم صلوه. ثم في سلسلة ذرعتها سمون ذراعاً فاسلكوه إنه كان لا يؤمن بالله العظيم. ولا يحض على طعام المسكين. فليس له اليوم ها هنا جحيم. ولا طعام إلا من غسيل. لا يأكله إلا الخاطئون ﴿ الحاقة : ١٣ - ٣٧ ﴾ . صدقت يارب العزة وبلغ رسولك .

اخا الإسلام :

أعد قراءة هذا المشهد مرة ومرة ، فإنه يفسر لك بكل دقة مدى طول السفر ، ويشرح لك بتفصيل ما سوف يجرى علينا ونحن في عالم البرزخ :

أرض تدك بالجيال .

وسماء تنشق وتنفطر .

وجنة تنادى على أحيائها .

وجحيم تسمر لأعداء الله .

فاستعدوا لأهوال القيامة يا أولي العقول والألباب وأنشدوا :

مثل لقلبك ايها المغرور

قد كورت شمس النهار وضعفت
يوم القيامة والسماء تصور

وإذا الجبال تعلقت بأصولها
حرًا على رأس العباد تقور

وإذا النجوم تساقطت وتناثرت
فرايتها مثل السحاب تسير

وإذا العنار تعطلت عن أهلها
وتبدلت بعد الضياء كدور

خلت الديار فما بها معمور
وإذا اللوحوش لدى القيامة احضرت

وتقول للأفلاك أين نسير

أخا الإسلام :

ما في الحياة بقاء

ما في الحياة ثبوت

بنبي البيوت وحتمًا

تنهار تلك البيوت

تموت كل البرايا

فسبحان من لا يموت

دخل أبو حازم على سليمان بن عبد الملك حين ولي الخلافة فقال : يا أبا حازم ما لنا نكره الموت ؟ قال : لأزكم عمرتم دنياكم وخبرتم آخرتكم ، فأنتم تكرهون النقلة من العمران إلى الخراب . قال : فأخبرني كيف القدوم على الله . فقال : يا أمير المؤمنين : أما المحسن فيندم على الله كالعاقب يقدم على أهله ، وأما المسيء فيقدم على الله كالعبد الأبق لسيداه يأتي مولاه خائفًا حزينا . قال : فأبى الأفعال أفضل ؟ قال : أداء الفرائض واجتناب المحارم . قال : أبى الدعاء أفضل ؟ قال : دعاء السهوف لمن أحسن إليه . قال : أبى الصدقة أوفى ؟ قال : أن لا تعلم يسراه ما أنفقت يمينه . قال : فأبى القول أفضل ؟ قال : كلمة حق عند من يخاف . قال : فأبى الناس أعدل ؟ قال : من عمل بطاعة الله ودل الناس عليها . قال : أبى الناس أجهل ؟ قال : من باع آخرته بدنياه . قال : عطفي وأوجز . قال : نزه ربك وعظمته أن يراك حيث نهاك أو يفقدك حيث أمرك .

فيكي الأمير ، فقال رجل من جلسائه : أبكيت أمير المؤمنين أو آخرته ، فقال : قد أخذ الله الميثاق على الأنبياء لبيئته للناس ولا تكتمونه ، ثم خرج فبعث إليه مجلى فرداه وقال : لا أرضاه لكم فكيف آخذه منكم .

جملة من وصايا الرسول - ﷺ -

من وصايا رسول الله ﷺ ما ورد عن أنس رضي الله عنه قال : أوصاني رسول

١١٠

الله ﷺ فقال لي : « أسبغ الوضوء يزد في عمرك ، وسلم على من لقيت تكثر حسناتك ، وإذا دخلت على أهل بيتك فسلم بكثرة خير بيتك ، وصل صلاة الضحى فإنها صلاة الأوابين قبلك ، وأرحم الصغير ووقر الكبير ، تكن من رفقاء يوم القيامة » .

ومن وصاياه ﷺ لأبي ذر : « أحكم السفينة فإن البحر عميق ، واستكثر الزاد فإن السفر طويل ، وخفف ظهرك فإن العقبة كثرة ، وأخلص العمل فإن الناقد بصير » .

ومن وصاياه ﷺ ما ورد عن أبي ذر أيضا قال : أوصاني خليلي محمد ﷺ بثلاث قال : « اسمع واطع ولو لمع لمجدوع ، وإذا صفت مرقاة فاكثر ماءها ثم انظر إلى أهل بيت جيرانك فأصبرهم بمنزلة جيرانك ، وصل الصلاة لوقتها » .

ومن وصاياه ﷺ ما ورد عن أبي ذر رضي الله عنه أيضا قال : « أوصاني خليلي بسبع لم أتركهن ولا أتركهن : أوصاني بحب المساكين والدنوس منهم ، وأن انظر إلى من هو أسفل مني ولا انظر إلى من هو فوق ، وأن أصل رجلي وأن أدبرت وقطعت ، وأن استكثر من قول لا إله إلا الله إنها كنز من كنوز الجنة ، وأن لا أسأل الناس شيئا ، وأن لا أخاف في الله لومة لائم ، وأن أقول الحق وإن كان مرأا » .

ومن وصاياه ﷺ ما ورد عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : « أوصاني خليلي ﷺ بثلاث : بصيام ثلاثة أيام من كل شهر ، وركعتي الضحى ، وأن أوتر قبل أن أرق » .

وعن أبي هريرة أيضا : « علمني رسول الله ﷺ ثلاث خصال لا أدعهن حتى أموت : لا أنام إلا على وضوء ، وأن أصوم كل شهر ثلاثة أيام ، وأن لا أدع صلاة الضحى » .

ومن وصاياه ﷺ قوله لعائشة : « إن أردت اللحوق بي فليكنك من الدنيا كتراد الراكب ، وإياك ومجالسة الأغنياء ، ولا تستخلفي ثوبا حتى ترتقيه » .

ومن وصاياه ﷺ ما ورد عن أنس رضي الله عنه قال : « خدمت النبي ﷺ وأنا ابن ثمان سنين فكان أول ما علمني أن قال : أحكم وضوءك لصلاتك يحبك حفظك ويؤد في عمرك . يا أنس يا بني : اغتسل من الجنابة وبالع فيه ، فإن تحت كل شعرة

١١١

جانبه . قلت : يا رسول الله كيف أبلغ فيها ؟ قال : « يا أنس أذلك جميع بدنك ، واهض الماء حتى يبلغ إلى جميع بشرتك ، ورد أصول الشعر ، وانق بشرتك ، تخرج به مغسلك وقد غفر ذنبك ، يا بني : لا تفوتك ركعتا الضحى ، فإنها صلاة الأوابين ، وأكثر الصلاة بالليل والنهار ، فإنك ما دمت في الصلاة فإن الملائكة يصلون عليك . يا أنس إذا قمت إلى الصلاة فانصب نفسك لله تعالى ، وإذا ركعت فاجعل راحتك على ركبتيك وفرج بين أصابعك وارفع عضدك عن جنبك ، وإذا رفعت رأسك فقم حتى يعود كل عضو إلى مكانه وإذا سجدت فالزم وجهك بالأرض ، ولا تنقر نقر الغراب ، ولا تبسط ذراعيك بسط الثعلب ، وإذا رفعت رأسك من السجود فلا تقع كما يقع الكلب ، وضع اليك بين قدميك ، والزم ظاهر قدميك بالأرض ، فإن الله تعالى لا ينظر إلى صلاة لا يتم ركوعها وسجودها ، وإن استطعت أن تكون على الوضوء في يومك وليلتك فافعل ، فإنه إن يأتك الموت وأنت على ذلك لم تفتك الشهادة . يا أنس لا تبيت ليلة ولا تصبح يوما وفي قلبك غش لأحد من أهل الإسلام فإن هذا من ستي ، ومن أخذ بستي فقد أحبنى ، ومن أحبنى فهو معي في الجنة . يا أنس إذا عملت هذا وحفظت وصيتي فلا يكون شيء أحب إليك من الموت فإن فيه راحتك » (١).

ومن وصاياه ما روى عن معاذ بن جبل قال : قلت يا رسول الله : أخبرني بعمل يدخلني الجنة ويباعدني من النار ؟ قال : « لقد سألت عن عظيم وإنه ليسير على من يسره الله عليه : تعبد الله ولا تشرك به شيئا ، وتقيم الصلاة ، وتؤتي الزكاة ، وتصوم رمضان ، وتحج البيت ، ثم قال : ألا أدلك على أبواب الخير : الصوم جنة (أى : وقاية) ، والصدقة تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار ، وصلاة الرجل في جوف الليل ، ثم تلا قوله تعالى : ﴿ تتجافى جنوبهم عن المضاجع ﴾ حتى بلغ : ﴿ يعملون ﴾ . ثم قال : ألا أخبرك برأس الأمر وعموده وذروة سنامه . قلت : بلى يا رسول الله . قال : « رأس الأمر الإسلام وعموده الصلاة وذروة سنامه الجهاد » .

(١) ويرجع في شأن هيات الصلاة لأحدى موسوعات الفقه الإسلامى الموثقة مثل : المغنى لابن قدامة ط مطبعة مكتبة القاهرة بالصناديقية - الأزهر الشريف .. لكن وهذه وصايا فإننا بحاجة ملحة إلى ما فيها من ترغيب وترية للنفس البشرية لاستكمال غزى الإيمان وأركان الإسلام وبلوغ درجة الإحسان ... آمين .

ثم قال : ألا أخبرك بملاك ذلك كله ؟ قلت : بلى يا رسول الله ، فأخذ بلسانه وقال : « كف عليك هذا » قلت : يا رسول الله : وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به ؟ فقال : « ثكلتك أمك وهل يكب الناس في النار على وجوههم - أو قال - على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم » .

وقد سار على ذلك النهج القويم وانصرط السوى المستقيم الصحابة والتابعون والعلماء الأجلاء العاملون . فكم بذلوا إلى الخلق من النصح الأتم ، وكم حضوا على ما فيه النفع الأعم ؟

اخْلَصِ الْعَمَلُ فَإِنَّ النَّاقدَ بَصِيرٌ

كتب الإمام الغزالي رضى الله عنه إلى الشيخ أبى الفتح بن سلامة : فرع سمعى أنك تلتبس منى كلاما وجيزا فى معرض النصح والوعظ ، وإنى لست أرى نفسى أهلا له ، فإن الوعظ زكاة نصابها الإنعاض ، فمن لا نصاب له كيف يخرج الزكاة ؟ وفاقد النور كيف يستنير به غيره ؟ ومتى يستقيم الظل والعود أعوج ؟

وقد أوصى الله تعالى عيسى بن مريم عليه السلام : يا ابن مريم عظ نفسك ، فإن اتعظت فعظ الناس ، وإلا فاستح منى .

وقال بعض العارفين : من علم فليعمل ، ومن جهل فليسال ، فالיום عمل ولا حساب ، وغدا حساب بلا عمل ، والعلم إمام والعمل تابع ، ومن لم يمش على الجادة ، ولا سلك بنفسه سبيل الاستقامة ، كيف ينصح سواه ويعظ غيره ؟ وإن نصح أو وعظ لا تنفع موعظته ، ولا تقبل نصيحته ، فقلما ينتفع بوعظ الواعظ ، ونصح الناصح ، إذا لم يكن متصفا بنفسه بالصفات الجيدة المرضية التى ندب الشارع إليها وحض عليها ، فالموعظة إذا خرجت من القلب وقعت فى القلب (يشير إلى القدوة المخلصة لله تعالى وحده) .

وقد علق الشارع الوعيد الشديد على من أمر بالمعروف ولم يفعله ، أو نهى عن المنكر وفعله .

ومن صفاته عليه الصلاة والسلام أنه كان لا يأمر بشيء إلا كان أول آخذ به ، ولا ينهى عن شيء إلا كان أول تارك له .

وقال تعالى : ﴿ أَنَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ ﴾ روى أنها نزلت في اليهود ، إذ كانوا يحضون على الصدقة ويخلون . وفي الآية وعيد شديد لمن اتصف بصفاتهم ، وفعل مثل فعلهم . ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ توبيخ عظيم ، وتشنيع فعيم (من الإفعال) والأحقية والنقل . والمعنى : أفلا تتفطنون لقيح ما ارتكبتم ، وشنيع ما تعاطيتم ، كأنه جعلهم مسئولين العُقُول ... لأن العقل يأتي هذا .

وقال البزار عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال : « مثل الذي يعلم الخير للناس وينسى نفسه مثل القتيلة تضيء على الناس وتحرق نفسها » وفي رواية الطبراني : « كمثل السراج يضيء للناس ويحرق نفسه » [رواه الطبراني في الكبير - عن جندب بن عبد الله الأزدي رضي الله عنه - وإسناده حسن إن شاء الله تعالى] .

وقال عليه الصلاة والسلام : « من أراد أن ينصب نفسه إماما فعليه بتعليم نفسه قبل تعليم غيره ، وليكن تأديبه بسيرته قبل تأديبه بلسانه ، ومؤدب نفسه ومعلمها أحق بالإجلال من معلم الناس ومؤدبهم » .

وقد حكى أن رجلا كان يجلس قريبا من محمد بن واسع فسمعه ابن واسع يوما يعظ أصحابه ويوبخهم وهو يقول : ما لي أرى القلوب لا تخشع ؟ وما لي أرى العيون لا تدمع والجلود لا تقشعر ؟ فقال له ابن واسع : يا عبد الله ما أرى القوم أتوا (أى : بعدم الخشوع) إلا من قبلك ، إن الذكر إذا خرج من القلب استقر في القلب . وقيل لحمدون العقار : ما بال كلام السلف أنفع من كلامنا ؟ قال : لأنهم تكلموا لعز الإسلام ونجاة النفوس ورضا الرحمن ، ونحن نتكلم لعز النفس وطلب الدنيا وقبول الخلق (كفى بها موعظة وتذكرة) .

كلمة حق خالدة

قال الله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مِنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ

وَأَتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَى أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴾ .

ويقول عز من قائل : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴾ . ويقول تبارك اسمه : ﴿ الَّذِينَ يَلْفُغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا ﴾ .

ويقول سيدنا رسول الله ﷺ : « اثنان إذا صلحا صلحت الأمة وإذا فسدا فسدت الأمة : العلماء والأمرء » .

وما هو ذا التاريخ المجيد ، تاريخ الإسلام الخالد ، يحدثنا عن رجل من رجال الأُمَراء المعروف الذين إذا قالوا فإنما يضعون أرواحهم على أكفهم رخيصة في أسواق الشهادة ، وهذا الرجل لم يقف التاريخ على اسمه ولكنه دخل التاريخ من أشرف أبوابه وأوسعها ، وما أكثر هؤلاء الجنود المجهولين الذين وقفوا المواقف الجليلة الجديرة بأن تسجل بحروف الذهب على صفحات النور ، ولندع الحقائق تكلمنا ولنصغ إلى صوتها في خشوع وأدب .

روى أن عبد الملك بن مروان خطب يوما ، فلما انتهى إلى موضع الوعظ فأحسن كل الإحسان إليه ، قام رجل من الحاضرين فقال : إنكم أيها الملوك تأمرون فلا تأمرون ، وتنهون ولا تنهون ، أفنقتدي بسيرتكم في أنفسكم ؟ أم نطيع أمركم بألستكم ؟ فإن قلتم اقتدوا بسيرتنا في أنفسنا فأئني وكيف وأين المصير من الله ؟ وما الحجة غدا بين يديه ؟ وإن قلتم اطيعوا أمرنا واقبلوا نصيحتنا ، فكيف ينصح من يغش نفسه ؟ وإن قلتم خذوا الحكمة حيث وجدتموها واقبلوا الموعظة ممن سمعتموها ، فعلام قلدناكم أزمّة أمورنا وحكمناكم في دماننا وأموالنا ؟

الصدق في القول والإخلاص في العمل

إذا ذكر اسم سفيان الثوري تدانت المعاني الجليلة ، والخصال النبيلة إلى ذهن ذاكرة ، فاسم سفيان مقارن للزهد والورع والإخلاص والتقوى والنقاء . أليس هو الرجل الذي ملأ طباق الأرض (أى : بقاعها) علما وزهدا ؟

ليس هو القوام الصَّوَّام الذي رآه أحدكم في المنام بعد موته ، فقال له : كيف حالك يا أبا سعيد فأشدد قائلا :

نظرت إلى ربي كفاحاً فقال لي

لقد كنت قواماً إذا اظلم الدجى

هيناً رضائي عنك يا ابن سعيد

فدونك فاختر أي قصر أردته

وزرني فإني منك غير بعيد

بماذا حدثنا التاريخ عن هذا الإمام الجليل وماذا حدث له وهو يخطب المسلمين ذات يوم .

استمع يا أخي بأذن قلبك ، لقد روي أن سفيان الثوري رحمه الله كان يعظ الناس ويشوقهم إلى الله ويرغبهم في ثوابه ويحذرهم من عقابه ، وكان الناس يتوافدون عليه فبعد يوماً منبره على عادته ، فلما استقر به الجلوس وأراد أن يتكلم رَفَعَت إليه امرأة رقعة ، فلما رآها تغير لونه وبكى بكاء شديداً ثم نزل ولم يتكلم ، فسأله أصحابه ومن يمر عليه أن يخبرهم بما في الرقعة فقرأها عليهم فإذا فيها مكتوب :

يا أيها الرجل المعلم غيره

تصف الدواء الذي السقام وذى الضنى

هلا لنفسك كان ذا التعليم

ونراك تصلح بالرشاد عقولنا

كيما يصح به وانت سقيم

فابدا بنفسك وانها عن غيبها

ابدا وانت من الرشاد عديم

فإنك يسمع ما تقول ويقتدى

فإذا انتهت عنك فانت حكيم

لا تنته عن خلق وتأتي مثله

بالقول فيه وينفع التعلُّيم

عار عليك إذا فعلت عظيم

فلما قرأ ذلك بكى بكاء شديداً حتى أغشى عليه ، فلما أفاق قالوا له : يا سيدي ، إن كلامك موزون ، وعرضك مصون ، تشفى القلوب بوعظك وتسل الخيرون ، فكيف يؤثر في قلبك هذا الكلام ، وأنت إمام ، وأنت إمام ؟ فيكى ، وقال : أنا ما أصلح أن أتكلم على رؤوس الناس ، فأننا أعرف بنفسى من غيرى ، ثم فاضت عيناه ، واشتغل بوجده وجداه ، وما عاد أحد بعد ذلك اليوم يتسعه أو يراه حتى مات رحمه الله^(١) .

خفف الحمل فإن العقبة كثود

﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدمت لعد واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون . ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم أولئك هم الفاسقون . لا يستوى أصحاب النار وأصحاب الجنة أصحاب الجنة هم الفائزون . لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله وتلك الأنثال تضربها للناس لعلهم يتذكرون . هو الله الذى لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر هو الله الذى لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر سبحان الله عما يشركون . هو الله الخالق البارئ المصور له الأسماء الحسنى يسبح له ما فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم ﴾ [الحشر : ١٨ - ١٩] .

قال معاوية بن أنى سفيان لضرار الصداق وكان من أصحاب الإمام على : يا ضرار صف لى علياً ؟ قال ضرار : اعفنى يا أمير المؤمنين .

قال معاوية : لتصفه .

قال ضرار : أما إذا لابد من وصفه ، فكان والله بعيد المدى ، شديد القوى ، يقول فصلاً ، ويحكم عدلاً ، يتفجر العلم من جوانبه ، وتنطق الحكمة من نواحيه ، يستوحش من الدنيا وزهرتها ويستأنس بالليل ووحيثنه . كان والله غزير العبرة ، طويل الفكرة ، يقلب كفه ، ويخاطب نفسه ، يعجبه من اللباس ما قصر ومن الطعام ما خشن ، كان

(١) علموا أن من كان لديه مكتوب عن أحد الصالحين الورعين الرُقاد الأتقياء الأقباء ... فهو مصاحب له . فلم لا نصاحبهم ونكون على آثارهم ؟

وهذه الآية الكريمة وهي قوله تعالى : ﴿لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا﴾ [الأحزاب : ٢١] قد اشتملت على ثلاثة مباحث :

أولها : الأسوة الحسنة في رسول الله ﷺ .

ثانيها : رجاء الله واليوم الآخر .

ثالثها : ذكر الله كثيرا .

ولنبدا الكلام عن الأسوة الحسنة في رسول الله ﷺ :

١ - إن الصفات الأساسية للرسول ﷺ وكل رسول كما يذكرها علماء التوحيد أربع هي : الصدق - الأمانة - الفطانة - التبليغ .

والمقصود بالصدق : واضح وهو ألا يكذب أبدا لأن معنى الرسالة الصدق وبدونه يتهمل الرسول فلا يصدق في شيء . والمقصود بالأمانة هنا : القيام بحق التكليف قياما كاملا ، وهذا ما عتبه الآية الكريمة : ﴿إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقنا منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوما جهولا﴾ [الأحزاب : ٧٢] ومظهر التكليف طاعة الأمر واجتناب النهي ، فالرسول إذن صورة طبق الأصل عن دعوته ، فإنه لا يخالف أمرا لله ولا يعص الله في شيء ، وإذا كان الإسلام هو دين الله فالرسول إذن هو رسول الله ، وهو الصورة العملية للإسلام الذي بعث به .

والمقصود بالفطانة : العقل الراجح والذكاء الحارق والحجة التي لا تدحض ، فإن مهمة الرسول ﷺ إقامة الحجة على من أرسل إليهم ، وأن يقيم الحجة لإنسان عاوي : ﴿رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل﴾ [النساء : ١٦٥] ورسالة للبشر عامة كرسالة سيدنا محمد ﷺ وشاملة لكل شؤون الحياة ، فإنها تحتاج إلى عقل لا مثيل له إذ على صاحبها أن يقيم الحجة على كل إنسان ، كبير هذا الإنسان أو صغر ، فيلسوفا كان أو عاديا ، ولا يخاطب صاحب العقل الكبير بما يخاطب به النسي .

والمقصود بالتبليغ : أن يبلغ كل ما أمر بتبليغه ، أي يبلغ مضمون رسالته للآخرين

ما كآخذنا . فحينما إذا سألناه ، وبنينا إذا استأناؤه ، لا نكاد نكلمه لحيته ولا نبدنه معه . يعظم أهل الدين ويحب المساكين ، لا يطع القوى في باطله ، ولا يأسهمع من عدله ، وأنشده لقد رأيت في بعض مواقفه وقد أرحى الليل سدوله وغارت من شلال في عرابيه ، قابضا على لحيته ، يتحمل تحمل السليم ، ويكي بكاء الخزين ، يا دنيا غري غري ، ألي تعرضت أم لي تشوقت ؟ هيهات هيهات !! لقد بايتك في خلقتك (ثلاثا لا رجعة فيها فمفرك قصير ، وخطرك حقير ، آه من قلة الزاد . سفر ووحشة الطريق ، فبكي معاوية وقال : برحم الله أبا الحسن ، لقد كان دمت ، فكيف حزنك عليه يا ضرار ؟ قال ضرار : حزن من ذبح وأجلعنا في حريقا .

الأسوة الحسنة

فصل :

قال تعالى : ﴿لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا﴾ [الأحزاب : ٢١] .

منه الآية الكريمة ذكرت أنه لا يتأسى برسول الله ﷺ إلا من كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا ، فكأنها تدلنا على الطريق الذي إن سلكناه تأسي برسول الله ﷺ . كما بينت أن الغاية هي التأسي وليست شيئا آخر فليس بعد السنة إلا الزين ، لا يعرف عنها هو الضلال البعيد ، قال ﷺ : «لقد جعلكم بها يضاء نقيه ولو كان نهي موسى خيا ما وسعه إلا اتباعي»^(١) .

وبعبارة الصلاة والسلام : «كفى يقوم صلاة أن يرجعوا عما جاء به نبيهم إلى الله ، من غير نبيهم أو كتاب غير كتابهم»^(٢) ثم تلا قوله تعالى : ﴿أو لم يكفهم

[العنكبوت : ٥١] .

مفسر : ج ١٣ ، ص ٣٥٥ .

مفسر : محمد الدارسي في سنده . القرطبي : دار الكتب المصرية ج ١٣ ، ص ٣٥٥ .

رجاء الله واليوم الآخر

المبحث الثاني في هذه الآية الكريمة : رجاء الله تعالى واليوم الآخر .

اعلم ، وفقني الله وإياك ، أن الله تبارك اسمه بيده الملك كله ، وإليه يرجع الأمر كله : ﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكُ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعْزِزُ مَنْ تَشَاءُ وَتُزِيلُ مَنْ تَشَاءُ يَبْدَأُ الْحَيَاةَ لَكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [آل عمران : ٢٦] .

﴿ وَإِنْ يَمْسُكِ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمْسُكِ بِخَيْرٍ فَلَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ، وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴾ [الأنعام : ١٨] .

﴿ وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حِجَابٌ فِي ظِلْمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مبین ﴾ [الأنعام : ٥٩] .

﴿ يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴾ [الرحمن : ٢٩] فإذا علمت هذا - ويجب أن تعلمه وتعتقده - فإذا سألت فاستأله الله ، وإذا استعنت فاستعنت بالله .

يا صاحب الهم إن الهم منفرج

ابشر بخير فإن الفارج الله

الياس يقطع أحيانا بصاحبه

لا تياسن فإن الكافى الله

الله يحدث بعد العسر ميسرة

لا تجزعن فإن الصانع الله

إذا بليت فشق بالله وأرض به

والله مالك غير الله^(١) من احمد

فحسبك الله في كل لك الله

مهما كان هذا المضمون ، خالف هوئى الناس أو وافقه ، سخط الناس أم رضوا ، كرموه أم آذوه : ﴿ الَّذِينَ يَلْعَنُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَحْشُونَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ ﴾ [الأحزاب : ٣٩] .

﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ ﴾ [المائدة : ٧] فإذا ما استجاب له من بلغهم ، تكون مهمته تربيتهم وتعليمهم الكتاب ، وشرح هذا الكتاب لهم : ﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ ﴾ [الجمعة : ٢] . ﴿ كَمَا أَرْسَلْنَا مِنْكُمْ رُسُلًا مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيَكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ ﴾ [البقرة : ١٥١] .

وإذن فمهمته مع من استجاب له تطهيرهم من أهواء الأنفس وشهواتها وأخلاقها السيئة ، وتعليمهم الكتاب ، وكذلك السنة المطهرة الشارحة للكتاب . وعليه أن يقوم مع من استجاب له بعملية الصراع ضد المجاهلية على أمر الله حتى تكون كلمة الله هي العليا : ﴿ وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيِّ قَاتَلَ مَعَهُ رِيقُونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَدُوا لَهَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ ، وَمَا كَانَ قَوْلُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ . فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحَسَّنَ ثَوَابَ الْآخِرَةِ ﴾ [آل عمران : ١٤٦-١٤٨] .

وهذا كله داخل في التبليغ ، ولا يقوم إنسان بحق الاقتداء إلا إذا أخذ هذا كله ، فكان صادقا وكان آمينا وكان فطنا وكان مبلغا عن الله ورسوله ﷺ .

ومن الناسى بصفة الأمانة أن يتأسى برسول الله ﷺ بإقامة الفرائض والواجبات ، والسنن بقسميها ، سنن الهدى وسنن العادة ، وقد يتأسى برسول الله ﷺ بترك المحرمات والمكروهات التحريمية .

إن كل فرد من أفراد الأمة الإسلامية يجب عليه أن يكون صورة صادقة لحياة نبي لإسلام ﷺ بياناً وجهاداً وحكمة وحكمة وعبادة وزهداً وإقداماً وثباتاً وكروماً وبرجولة ولطفاً ورحمة وحزماً ، وإذا ما استطاع كل فرد من أفراد هذه الأمة أن يرتفع هذا الارتفاع ، فإننا نؤكد أنه وقدناك يحس بطعم إنسانيته تميزاً وارتفاعاً وتحليفاً بالروح في أشواقها الإيمانية .

نسأل الله أن يجعل رضوانه غاييتنا ، ورسولنا قدوتنا في كل شأن من شئوننا .

(١) ما دونه

﴿ قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا هو مولانا وعلى الله فليوكل المؤمنون ﴾ [التوبة : ٥١] .

فألهم اقسام لنا من طاعتك ما نبلغنا به رحمتك ، واقسم لنا من خشيتك ما نعمل به بيننا وبين معاصيك ، واقسم لنا من اليقين ما نهون به علينا مصائب الدنيا .

اللهم إنا نعوذ بك من الفقر إلا إليك .

ومن الخوف إلا منك .

ومن الذل إلا لك .

اللهم أرنا الأشياء كما هي .

أرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه .

وأرنا الباطل باطلا وارزقنا اجتنابه .

فعلى المؤمن أن يأخذ لى الأسباب .

ويؤدى ما عليه من واجبات .

ولله عاقبة الأمور .

على الرء أن يسمى وليس عليه إدراك المقاصد : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا نودى للصلاة من يوم الجمعة فاسموا إلى ذكر الله وذروا البيع ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون . فإذا قضيت الصلاة فانتشروا إلى الأرض وابتغوا من فضل الله واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون ﴾ [الجمعة : ٩ - ١٠] .

﴿ هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور ﴾ [الملك : ١٥] .

قبل لتلقى الدين الحسن البصرى رضى الله عنه : ما سيرُ زُهدك فى الدنيا ؟

قال : أربعة أشياء :

علمت أن رزقى لا يأخذه غيره فاطمأن قلبي .

وعلمت أن عمل لا يقوم به غيرى فاشتغلت به .

وعلمت أن الله مطلع على فاستحييت أن يرانى على معصية .

وعلمت أن الموت ينتظرني فأعددت الزاد للقاء الله .

فاتماد المؤمن على الله هو الأساس ، والأخذ فى الأسباب تنفيذ لأوامر الله : ﴿ ومن يتوكل على الله فهو حسبه إن الله بالغ أمره قد جعل الله لكل شىء قدرا ﴾

[الطلاق : ٢] .

عن جابر رضى الله عنه أنه غزا مع رسول الله ﷺ قبل نجد ، فلما قتل رسول الله قتل معهم فأدركتهم القافلة فى واد كبير الغناء ، فنزل رسول الله ﷺ وتفرق الناس يستظلون بالشجر ، ونزل رسول الله ﷺ تحت شجرة فعلق بها سيفه ، ونما نومة ، فإذا رسول الله ﷺ يدعوننا ، وإذا عنده أعرأى ، فقال : إن هذا اخترط على سيفي وأنا نائم فاستيقظت ، وهو فى يده مصلنا .

قال : من يمتنع منى ؟ قلت : الله ، ثلاثا ، بمعنى منك :

قال : الله ، فسقط السيف من يده ولم يتعبه (يتلقاه) وولّى (ألى) انصرف

لحالته) .

وفى رواية أبى بكر الإسماعيل فى صحيحه قال : من يمتنع منى ؟ قال : الله ، فسقط السيف من يده ، فأخذ رسول الله ﷺ السيف فقال : من يمتنع منى ؟ فقال : محمد خير أخذ ، فقال : تشهد أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله . قال : لا ، ولكنى أعاهدك أن لا أقاتلك ، ولا أكون مع قوم يقاتلونك ، فخلى سبيله ، فأتى أصحابه فقال : جتكم من عند خير الناس .

وفى حديث الهجرة المنفق عليه عن أبى بكر قال : نظرت إلى أقدام المشركين ونحن فى الغار وهم على رؤوسنا ، فقلت : يا رسول الله لو أن أحدهم نظر تحت قدميه لأبصرنا ، فقال : « ما ظنك يا أبى بكر بالثين الله ثالثهما »

[رواه البخارى ومسلم فى فضل الصحابة ومناب المهاجرين]

أخذ بالأسباب واعتماد على الله مطلق :

أما رجاء اليوم الآخر فهذه غاية المتوكلين على الله المعتقدين فى لقاء الله ، وقضية الآخرة هى الركن الركين ، والأصل المبكين فى عقيدة الإسلام ، ولذا كان دعاء يوسف عليه السلام : ﴿ توفنى مسلما وأحقنى بالصالحين ﴾ [يوسف : ١٠٢] .

أما المؤمنون فإن هديهم الآخرة وما يسعون : ﴿ ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكورا ﴾ [الإسراء : ١٩] .

﴿ وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا ﴾ [القصص : ١٧] . فالآخرة هي الهدف ، والدنيا طريق لهذا الهدف ، وعلى قدر ما يزداد علم الإنسان يتضح لديه أن الدنيا لا تساوى شيئا بالنسبة للآخرة : ﴿ بل تؤثر الحياة الدنيا . والآخرة خير وأبقى ﴾ [الأعلى : ١٦ - ١٧] ﴿ وقال الذين أوتوا العلم ويلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحا ﴾ [القصص : ٨٠] .

وليس معنى كون الآخرة هي الهدف أن المسلم يحرم عليه أن ينال شيئا من الدنيا . إن الله تعالى علما أن ندعو : ﴿ ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة ﴾ [البقرة : ٢٠١] .

بل المقصود أن الدنيا ليست هي الهدف ، وإنما ينبغي أن يمر بها المسلم وهو عالم أنه على الطريق إلى هدف آخر ، فما الإنسان في جبل من الأجيال إلا ذرة في فضاء ، وما الجبل في الزمان إلا لينة في بناء ، وما الزمان إلا مقدمة معدودة لعالم البقاء : ﴿ قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى ولا تظلمون فيها ﴾ [النساء : ٧٧] .

﴿ أنها تكونوا بديركم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة ﴾ [النساء : ٧٨] . مثل النبي ﷺ عن معنى قوله جل شأنه : ﴿ فممن يود الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ﴾ [الأنعام : ١٢٥] .

قل له : ما هذا الشرح ؟

قال : إن النور إذا دخل في القلب انشرح له الصدر وانفسح .

قل : يا رسول الله وهل لذلك من علامة ؟

قال : نعم ، التجافى عن دار الفجور والإلابة إلى دار الخلود ، والاستعداد للموت قبل نزوله .

ويشرقا في هذا المقام أن يسجل على هذه الصفحات المواقف التي وقفها هؤلاء الرجال الذين طلبوا ما عند الله فأنالوا الدرجات العلا ، صدقوا الله فصدقهم الله .

ودعاء إبراهيم : ﴿ واحمل لي لسان صدق في الآخرين . واجعلني من ورثة جنة النعيم ﴾ [الشعراء : ٩٤ - ٨٥] .

ودعاء الحبيب محمد ﷺ : ﴿ قل رب ادخلي مدخل صدق وأخرجني مخرج صدق واجعل لي من لدنك سلطانا نصيرا ﴾ [الإسراء : ٨٠] .

إن قضية اليوم الآخر هي أهم قضية في الوجود - على الإطلاق - بعد قضية الأروحية ، وهي ملازمة للإيمان بالله لا تنفصل عنها فإنه من عرف الله وآمن به ينبغي عليه أن يؤمن باليوم الآخر ، الذي سيثاب فيه المحسن على إحسانه ويجازى فيه المسيء على إساءته ، والذي بعث الرسل عليهم الصلاة والسلام كلهم من أجل التبشير والإنذار منه : ﴿ رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل ﴾ [النساء : ١٦٥] به تثبت نتيجة الامتحان الذي امتحن به الإنسان ﴿ الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا ﴾ [الملك : ٢] .

ولذلك كانت هذه القضية بالنسبة للمسلم محور عمله كله ، ومحور فكره كله ، يقول الله تعالى : ﴿ وويل للكافرين من عذاب شديد . الذين يستحبون الحياة الدنيا على الآخرة ويصدون عن سبيل الله ويغفونها عوجا أولئك في ضلال بعيد ﴾ [إبراهيم : ٢ - ٣] .

﴿ إن الذين لا يرجون لقاءنا ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها والذين هم عن آياتنا غافلون . أولئك مأواهم النار بما كانوا يكسبون ﴾ [يونس : ٨] .

﴿ فأعرض عمن تولى عن ذكرنا ولم يرد إلا الحياة الدنيا . ذلك مبلغهم من العلم ﴾ [النجم : ٣٩ - ٤٠] .

﴿ من كان يريد العاجلة جعلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموما مدحورا ﴾ [الإسراء : ١٨] .

﴿ من كان يريد حرث الآخرة نزد له في حرثه ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وما له في الآخرة من نصيب ﴾ [الشورى : ٢٠] .

فآيات القرآن إذ حارمة أن الكافرين هم الذين جعلوا الدنيا هدفهم ومرادهم واستحبوها على الآخرة .

تذكر من هؤلاء الرجال الشهيد سعد بن خيشمة .
 أما سعد فكان شهيد بدر وأما أبوه خيشمة فكان شهيد أحد .
 ولتصت الآن إلى الحقائق نخدثنا حديث الدارس الواعي ، وتنبؤنا بهذه المواقف المشرفة التي آثر فيها هؤلاء الرجال ما عند الله : ﴿ وما عند الله خير للأبرار ﴾ .
 لقد كان سعد سيد قومه ونقيهم في يوم العقبة وقد وقى ما كان على قيد الحياة ، لقد قال خيشمة لابنه سعد يوم بدر : لا بد لأحدنا أن يقيم قاتلنا بالخروج وأقم أنت مع نساتنا ، فأبى سعد وقال له : لو كان غير الجنة لآثرتك به ، إني أرجو الشهادة في جسمي هذا ، فاستهما فخرج سعد وأبلى يوم بدر أحسن البلاء ثم قتل .
 إن خيشمة تذكر كل هذا ، تذكر أنه لم يحزن على سعد ، لأنه في جوارحه وفي رضوان من الله أكبر .

وأحب خيشمة أن يلحق بابنه وأن يفوز بما فاز به ، فلما طلب الرسول من الناس المشورة ، وقف خيشمة فقال : يا رسول الله إن قريشا مكثت خولاً تجمع الجمع ، وتستجلب العرب في بواديها ومن تبعها من أحابشها ، ثم جابونا قد قادوا الخيل ، وامطوا الإبل حتى نزلوا بساحتنا فيحصرونا في بيوتنا ، وحياً حياً ، ثم يرجعون ولقرين (أى : يجرحوا) لم يكلموا فيجرعهم ذلك علينا حتى يشنوا الغارات ويصيبوا أطرافنا وضموا العيون والأرصاد علينا مع ما قد صنعوا بخرونا ، وتجترى علينا العرب حولنا حتى يطعموا فينا إذا رأونا لم نخرج إليهم فنقيهم (أى : ندفعهم ونردهم) عن قرانا ، وعسى الله أن يظفرنا بهم ، فذلك عادة الله عندنا أو تكون الأخرى فهي الشهادة .
 لقد أخطأتني وقعة بدر ، وقد كنت عليها حريصاً ، لقد بلغ من حرصي أن ساهمت ابني في الخروج فخرج سهمه ، ففرق الشهادة ، وقد كنت على الشهادة حريصاً وقد رأيت ابني في البارحة في النوم في أحسن صورة يسرح في ثمار الجنة وأزهارها وهو يقول : إلحق بنا تراقنا في الجنة ، فقد وحلت ما وعدني ربي حقاً ، وقد والله يا رسول الله أصبحت مشتاقاً إلى مرافقته في الجنة ، وقد كبرت سنن وورق عظمي ، وأحب لقاء ربي ، فادع الله يا رسول الله أن يرزقني الشهادة ومرافقة سعد في الجنة ، فدعاه الرسول بذلك ، فذكر خيشمة كل هذا ، وترددت دعوة الرسول في أذنه كأنها ما زالت تترنُّ

بعد ، وفي تلك اللحظة تناوله الرماح فسقط شهيداً ، واستقر في جنات ونهر ، في مقعد صدق عند مليك مقتدر ، وهتف سكان العالم العلوي والمألائي : ﴿ أولئك هم الوارثون . الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون ﴾ [المؤمنون : ١٠ - ١١] .
 فهبتنا لك الشهادة يا سعد يا شهيد بدر ، ومبتنا لك الشهادة يا خيشمة يا شهيد أحد : ﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات يكثرون بهم بأيمانهم تجرى من تحتهم الأنهار في جنات النعيم . دعواهم فيها سبحانك اللهم وتحيتهم فيها سلام وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين ﴾ [يونس : ٩ - ١٠] .

ذكر الله تعالى

هذا هو المبحث الثالث في هذه الآية الكريمة : ﴿ لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً ﴾ وشاهدت في هذا المبحث قوله جل شأنه : ﴿ وذكر الله كثيراً ﴾ [الأحزاب : ٢١] .
 إن الذكر - في الحقيقة - استحضار عظمة الله تعالى وجلاله وكاله استحضاراً قلبياً يبعث على الحشمة والمراقبة ، ولا بد أن يكون الذكر مصحوباً بالفكر ، كما قال تعالى : ﴿ إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الأبصار . الذين يذكر الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السماوات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانك فقنا عذاب النار ﴾ [آل عمران : ١٩١] .
 وقد أمر الله عباده المؤمنين أن يذكروه كثيراً ، فقال عز من قائل : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكراً كثيراً . وسبحوه بكرة وأصيلاً ﴾ [الأحزاب : ٤١ - ٤٢] .
 وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ : « سبق الفردون . قالوا : وما الفردون يا رسول الله ؟ قال : الذاكرون الله كثيراً » [واللفظ لمسلم] .
 قال النووي في بيان الذكر الكثير : قال الإمام أبو الحسن الواحدى ، قال ابن عباس : المراد : يذكر الله في أديار الصلوات وغدوا وعشيا وفي المضاجع ، وكلمة استيقظ من نومه ، وكلمة عدا أو راح ذكر الله تعالى .

أنواع الذكر

ومن تنوع الكتاب والسنة وجد ما يلي :

أن الذكر يتمثل بثلاث نواح :

- (١) ناحية عامة وهي استحضار نية العمل لوجه الله في كل ما يفعله المسلم ، وذلك ذكر .
- (٢) ناحية أساسية وهي الصلاة ، فروضها وسننها ، وبدونها لا يكون الإنسان ذاكرا وبإكمالها يكون من الذاكرين الله كثيرا والذاكرات .
- (٣) ناحية متممة وهي الأذكار المأثورة باختلاف الأحوال والحالات والأوقات والمناسبات .

أما الناحية الأولى : وهي استحضار النية ، فإن نية المرء تعتبر تعبيرا لعبادة ما دام ينوي بعمله وجه الله تعالى والتقرب إليه ، ولذا قال عليه السلام : « إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى » [رواه الإمامان البخاري ومسلم وغيرها وهو من أصول الإسلام] .

وقال : « إذا أتفق المسلم على أهله نفقة وهو يحسبها كانت له صدقة » [رواه البخاري ومسلم عن أبي مسعود البدي] فإذا تحولت النية من الخير إلى الشر وعزم صاحبها على تنفيذ ما نوى ، فإن الله تعالى يخاسبه على عزمه وتصميمه .

وهذه الآيات البينات تبين لنا تلك القضية : ﴿ إنا بلوناهم كما بلونا أصحاب الجنة إذ أقسموا ليصرمنها مصبحين . ولا يستثنون فطاف عليها طائف من ربك وهم نائمون . فأصبحت كالصريم . فتنادوا مبصحين . أن اغدوا على حرثكم إن كنتم صارمين . فانطلقوا وهم يتخافتون . أن لا يدخلوها اليوم عليكم مسكين . وغدوا على حرد قادرين . فلما رأوها قالوا إنا لصالمون . بل نحن محرومون . قال أولسطينهم أم أقل لكم لو لا تسبحون . قالوا سبحان ربنا إنا كنا ظالمين . فأقبل بعضهم على بعض يتلاومون . قالوا يا ويلنا إنا كنا طاغين . عسى ربنا أن يبدلنا خيرا منها إنا

وقال مجاهد : لا يكون من الذاكرين الله كثيرا والذاكرات حتى يذكر الله قائما وقاعدا ومضطجعا ، أي على كل حال في حركاته وسكنه ونومه ، ومعنى ذلك أن يستحضر عظمة الله وجلاله وكأله في جميع شئونه ، كما أخبر بذلك الصادق الأمين عليه السلام وهو يجيب على سؤال جبريل : « ما الإحسان ؟ قال : أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك ، وليس الذكر قاصرا على تحريك الأنسة والشفاه ، إنما الذكر على سبعة أنحاء :

فذكر العيين البكاء ، وذكر الأذنين الاصغاء ، وذكر اللسان التشاء ، وذكر اليدين العطاء ، وذكر البدن الوفاء ، وذكر الروح الخوف والرجاء ، وذكر القلب التسليم والرضا .

آداب الذكر

وللذكر آداب يجب مراعاتها ، اجتمعت هذه الآداب في قوله تعالى : ﴿ واذكر ربك في نفسك تضرعا وخيفة ودون الجهر من القول بالعدو والأصالح ولا تكن من الغافلين ﴾ [الأعراف : ٢٠٥] .

إذ أن خشوع القلب متوقف على خشوع الجوارح ، فيستحب للذاكر الله أن يجلس مستقبلا للقبلة كهيمة التشهد في الصلاة ، وأن يستحضر عظمة الله حتى يكون بين اللسان والقلب توافق وتجاوب ، فيخشع القلب ويصدق اللسان .

روى عن عطاء رضى الله عنه : من صلى الصلوات الخمس بحقوقها ، فهو داخل في قول الله تعالى : ﴿ والذاكرين الله كثيرا والذاكرات ﴾ .

وقد جاء في حديث أبي سعيد الخدري رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا أيقظ الرجل أهله من الليل فليصليا أو صلى ركعتين جميعا كتب في الذاكرين الله كثيرا والذاكرات » [هذا حديث مشهور ، رواه أبو داود وقال : رواه ابن كثير متوفيا على أبي سعيد ولم يذكر أنها هريفة . ورواه النسائي وابن ماجة ... والحاكم وقال : صحيح على شرط الشيخين ووافقه الإمام شمس الدين الذهبي] .

إلى ربنا والغيثون ﴿ [القلم : ١٧ - ٣٢] .

وأما الناحية الثانية : وهي الصلاة ، فإن الصلاة كلها ذكر ، لذلك قال تعالى : ﴿ وأقم الصلاة لذكري ﴾ [طه : ١٤] .

وقال تعالى : ﴿ إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله وذروا البيع ﴾ [الجمعة : ٩] .

ويعتد ما يحسن الإنسان فيها يكون ذكرا ، ويعتد ما يسيء أو يقصر يكون غافلا . قال تعالى في وصف الناقيين : ﴿ وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى يراءون الناس ولا يذكرون الله إلا قليلا ﴾ [النساء : ١٤٢] .

ومن تأمل الصلاة وجد أن دعاء الاتحاح فيها ذكر ، وفي القيام ذكر ، وقراءة القرآن ذكر ، وفي الركوع ذكر ، وفي القيام منه ذكر ، وفي السجود ذكر ، وفي القعتين ذكر ، وأورادها الراجعة بعدها ذكر .

فإذا ما أدى الإنسان الصلوات كلها ، فرائضها وستنها ، وما سن له فيها وبعدها وقبلها ، فإن ذلك وحده يجعله من الذاكرين الله كثيرا والذاكرات .

وقد روى عن النبوى ما يشير إلى ذلك . فإذا ما أقام فريضة الصبح وناقلها بين الفجر والشمس ، وأقام سنة الضحى بين الشمس والزوال ، وأقام سنة الظهر القبلية وفريضة الظهر وستنها البعدية بين الزوال والعصر وأقام العصر في وقتها ، والمغرب وستنها كذلك ، والعشاء وستنها ، ثم القيام والنهجد والوتر ، كان لا شك من الذاكرين الله كثيرا والذاكرات .

قال عليه السلام : « من قام بعشر آيات لم يكتب من الغافلين ، ومن قام بمائة آية كتب من القانتين ، ومن قام بألف آية كتب من القنطرين » .

وأما الناحية الثالثة وهي الأذكار الماثورة ، فإنه يسن للمؤمن أن يذكر الله على كل حال . فقد كان رسول الله ﷺ يذكر الله على كل أحواله ، وهذا الباب ليس فيه تحديد . بل على المسلم أن يذكر الله بشكل مطلق ولا يزال لسانه رطبا يذكر الله . قال عليه السلام : « جددوا إيمانكم » . قيل يا رسول الله : كيف تجدد إيماننا ؟ قال : « أكثروا من قول لا إله إلا الله » [رواه أحمد والطبراني وإسناد أحمد حسن . وقيل : جددوا بفتح الدال] .

وقال مولانا تبارك اسمه : ﴿ في بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه يسبح له فيها بالغدو والآصال . رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة يخافون يوما تتقلب فيه القلوب والأنصار ﴾ [النور : ٣٦ - ٣٧] .

وما يجب التنبيه عليه أن المسلم يختار الأمر الوسط دون إفراط أو تفريط ، وهذه سنة الإسلام في تشريعاته إذ لا يعرف الإسراف ولا التقصير : ﴿ والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما ﴾ [الفرقان : ٦٧] .

ولذا فإن الله تبارك وتعالى يأمر بذكره بالكيفية التي لا تنطلي مصالح العباد وقضاء حوائجهم وتفريخ كبريهم وإغاثة ملهوفهم ، وفي الوقت نفسه فإن الإسلام ينهى عن الغفلة ، ويوصي بأن يظل القلب حاضرا مع الله يغذيه اللسان بذكر الله .

قال عليه السلام : « مثل الذي يذكر ربه ، والذي لا يذكر ربه ، كمثل الحى والميت ﴾ [رواه الشيخان] .

قال عليه السلام : « ما فقد قوم مقعدا لم يذكروا الله فيه ولم يصلوا على النبي ﷺ إلا كان عليهم حسرة يوم القيامة وإن دخلوا الجنة للثواب » [رواه أحمد بإسناد صحيح]^(١) .

وقال عليه الصلاة والسلام : « ما جلس قوم مجلسا لم يذكروا الله تعالى فيه إلا كان عليهم ترة ، وما من رجل يمشى طريقا فلم يذكر الله عز وجل إلا كان عليه ترة » . ومن فضل الله تعالى على عباده ورحمته بهم ، أنه لم يكلفهم بما لا يطيقون أو يشق عليهم فيما أخبرهم به ، فقد وردت في الذكر صيغة جامعة ، موجزة في معناها ، عظيمة في أثرها ونواها ، لمن ذكر الله بها .

عن حورية أم المؤمنين رضى الله عنها أن النبي ﷺ أخرج من عندها بكرة حيث صلى الصبح وهو في مسجدها ، ثم رجع بعد أن أضحى وهي جالسة ، فقال : « ما زلت اليوم على الحال التي فارقتك عليها » . قالت : نعم ، فقال النبي ﷺ : « لقد قلت بعدك أربع كلمات ، ثلاث مرات ، لو وزنت بما قلت منذ اليوم لوزنتهن :

(١) ينظر ابن كثير ط الشعب ج ٦ ، ص ٤٦٠ .

الصلاة على رسول الله ﷺ

﴿إن الله وملائكته يصلون على النبي يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليماً﴾ [الأحزاب: ٥٦] اللهم صل على محمد وعلى آل محمد، كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم، وبارك على محمد وعلى آل محمد، كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم في العالمين إنك حميد مجيد.

إن الصلاة على رسول الله ﷺ تخرج صاحبها بفضل الله من ظلمات الغفلة والشهوة وترتفع به من غياهب الظلمات إلى مدارج الأنوار ومعارج الأسرار.

﴿هو الذي يصل عليكم وملائكته ليخرجكم من الظلمات إلى النور وكان بالمؤمنين رحيماً. تحيتهم بملقونه سلاماً وأعد لهم أجراً كريماً﴾ [الأحزاب: ٤٣-٤٤]. قال ﷺ: «من صل على صلاة واحدة صل الله عليه عشر صلوات وحطت عنه عشر خطيئات ورفعت له عشر درجات».

وروى النسائي عن أبي طلحة أن النبي ﷺ جاء ذات يوم والبشرى في وجهه فقننا: إنا لبشرى البشرى في وجهك. قال: «إنه آتاني الملك، فقال يا محمد إن ربك يقول إما يرضيك أنه لا يصل عليك أحد إلا صليت عليه عشرًا ولا يسلم عليك أحد إلا سلمت عليه عشرًا» [رواه أحمد والنسائي] فهذا فضل الله تعالى على عباده إذا هم صلوا على نبيه ﷺ.

وتأكد الصلاة على رسول الله ﷺ إذا ذكر اسمه، لما رواه الترمذي عن علي بإسناد حسن: «البحيل الذي من ذكرت عنده فلم يصل على ﷺ».

ونحب هنا أن نذكر ما جاء في كتب التفسير عن معنى قوله تعالى: ﴿إن الله وملائكته يصلون على النبي يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليماً﴾ [الأحزاب: ٥٦].

قال البخاري: قال أبو العالية:

سبحان الله وبحمده، عدد خلقه، ورضاء نفسه، وزنة عرشه، ومداد كلماته، [رواه مسلم وأبو داود والنسائي].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «من قال حين يصبح: ﴿سبحان الله حين تمسون وحين تصبحون. وله الحمد في السموات والأرض وعشيا وحين تطهرون. يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ويحيي الأرض بعد موتها وكذلك تخرجون﴾ [الروم: ١٩] أدرك ما فاتته في يومه ذلك. ومن قالها حين يمسي أدرك ما فاتته في ليلته» [رواه أبو داود في سننه، والطبراني: تفسير ابن كثير]. وهناك أذكار رأينا في ذكرها التسهيل على العباد، حتى لا يخرجوا من ذلك الخير العظيم والبركة والفضل.

من هذه الأذكار الاستغفار: وهو أن يقول العبد: استغفر الله، أو أن يقول استغفر الله العظيم، الذي لا إله إلا هو^(١) وحده لا شريك له، له الملك، وله الحمد، وهو على كل شيء قدير، فإن من قالها في يومه مائة مرة كانت له عدل عشر رقاب، وكتب له مائة حسنة، ومحيت عنه مائة سيئة، وكانت له حرزا من الشيطان يومه ذلك حتى يمسي ولم يأت أحد بأفضل مما جاء به إلا رجل غبل أكثر منه.

وكنا نعلم أن هناك كلمتين خفيتين على اللسان، ولكنهما ثقيلتان في الميزان، وهما: سبحان الله العظيم، سبحان الله وبحمده.

كما لا يفوتنا أن نذكر وصية الخليل إبراهيم التي قالها للنبي ليلة المعراج: «يا محمد أقرىء أمك مني السلام وأخبرهم أن الجنة طيبة التربة، عذبة الماء، وأنها قيعان، وغراسها: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر».

قال النبي ﷺ: «ولا حول ولا قوة إلا بالله كثر من كنوز الجنة» [رواه مسلم]. وغير ذلك من أحاديث الأذكار الصحيحة (الأذكار للنووي ط الحلي - اللؤلؤ والمرجان طيبة الحلي - منتقى الترتيب والترتيب ط دار الوفاء) وغيرها.

ومنها حديث سيد الاستغفار: «اللهم أنت رب لا إله إلا أنت خلقتني وأنا عبدك وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت... أعوذ بك من شر ما صنعت وأبوء لك بنعمتي على فأغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت» [رواه البخاري].

(١) هنا دمج ومرج بين الاستغفار والتوحيد... فالتلهم لورقا القول الصادق والعمل الصالح.

صلاة الله تعالى نناؤه عليه عند الملائكة وصلاة الملائكة للنساء .

وقال ابن عباس : يصلون أى يباركون .

وروى عن سفيان الثوري وغير واحد من أهل العلم قالوا : صلاة الرب الرحمة وصلاة الملائكة الاستغفار .

وروى عن عطاء بن أبى رباح : ﴿ إن الله وملائكته يصلون على النبي ﴾ قال : صلاته تبارك وتعالى : سبح قلوب سبقت رحمتي غضيبي .

والمقصود من هذه الآية ، أن الله سبحانه وتعالى أخبر عباده بمنزلة عبده ونبيه في الملائكة الأعلى ، بأنه ينشئ عليه عند الملائكة القربين وأن الملائكة تصلى عليه ، ثم أمر الله تعالى أهل العالم السفلى بالصلاة والتسليم عليه ليجتمع الناء عليه من أهل العالمين العلوى والسفلى جميعا .

قال ابن أبى حاتم : حدثنا على بن الحسين ، حدثنا أحمد بن عبد الرحمن ، حدثني أبى عن أبيه عن أشعث بن إسحاق عن جعفر ، يعنى بن المغيرة ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس أن بنى إسرائيل قالوا لموسى عليه الصلاة والسلام : هل يصل ربك ؟ فناداه ربه عز وجل : يا موسى سألوكم هل يصل ربك ؟ فقل نعم ، أنا أصلى وملائكتي على أنبيائي ورسلي ، فأنزل الله عز وجل على نبيه محمد ﷺ : ﴿ إن الله وملائكته يصلون على النبي يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما ﴾ [الأحزاب : ٥٦ السابق الإشارة إليها] .

وقد أخبر سبحانه وتعالى بأنه يصل على عباده المؤمنين في قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكرا كثيرا . وسبحوه بكرة وأصيلا . هو الذى يصل عليكم وملائكته ليخرجكم من الظلمات إلى النور ﴾ [الأحزاب : ٤١ - ٤٣] .

وقال جل شأنه : ﴿ وبشر الصابرين . الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون . أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون ﴾ [البقرة : ١٥٥ - ١٥٧] .

وفي الحديث الشريف : « إن الله وملائكته يصلون على ميامن الصفوف » [رواه أبو داود وابن ماجه بإسناد حسن] .

وقال عليه الصلاة والسلام : « إن الله وملائكته وأهل السموات والأرض حتى النملة في جحرها والحيتان في البحر يصلون على معلم الناس الخير » .

والنظراني في الأوسط والكبير عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « ومن قرأ السورة التي يذكر فيها آل عمران يوم الجمعة صلى عليه الله وملائكته حتى تغيب الشمس » .

كيفية الصلاة على رسول الله ﷺ

وردت أحاديث عن رسول الله ﷺ تبين لنا كيفية الصلاة عليه ، كما تفيد الأمر بالصلاة عليه .

قال البخاري في تفسير قوله تعالى : ﴿ إن الله وملائكته يصلون على النبي يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما ﴾ .

قال : حدثنا سعيد بن يحيى بن سعيد أخبرنا أبى عن مسعر عن الحكم عن ابن أبى ليلى عن كعب بن عجرة قال : قيل يا رسول الله : أما السلام عليك فقد عرفناه ، فكيف الصلاة ؟ قال : « قولوا : اللهم صلى على محمد وعلى آل محمد ، كما صليت على آل إبراهيم ، إنك حميد مجيد ، اللهم بارك على محمد وعلى آل محمد ، كما باركت على آل إبراهيم ، إنك حميد مجيد » .

ومعنى قولهم لرسول الله ﷺ : قد علمنا السلام عليك ، فالتقصود ما جاء في التشهد وهو : السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته .

وفي حديث آخر قالوا : يا رسول الله كيف تصلى عليك ؟ قال : « قولوا : اللهم صل على محمد وأزواجه وذريته ، كما صليت على آل إبراهيم ، وبارك على محمد وأزواجه وذريته ، كما باركت على آل إبراهيم ، إنك حميد مجيد » .

وعن أبو مسعود البدرى رضى الله عنه أنهم قالوا : يا رسول الله أما السلام فقد عرفناه ، فكيف تصلى عليك إذا نحن صلينا في صلاتنا فقال : « قولوا : اللهم صلى

بركات الصلاة على رسول الله ﷺ

ومن بركات الصلاة على رسول الله ﷺ أن الملائكة تصلي على من صلى عليه ما دام يصلي عليه .

قال ﷺ : « من صلى على صلاة لم تزل الملائكة تصلي عليه ما صلى على فلنقلُ عبد من ذلك أو لكثر » .

وروى أبو عيسى الترمذي بسنده عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال : قال

رسول الله ﷺ : « أولى الناس بي يوم القيامة أكثرهم على صلاة » .

وعن زيد بن طلحة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « أتاني آت من ربي فقال لي : ما من عبد يصلي عليك صلاة إلا صلى الله عليه بها عشرا » فقام إليه رجل فقال : يا رسول الله ألا أجعل نصف دعائي لك ؟ قال : إن شئت . قال : ألا أجعل ثلثي دعائي لك ؟ قال ؟ قال : « إن شئت » . قال : ألا أجعل دعائي كله لك ؟ قال : « إذن يكفيك الله هم الدنيا وهم الآخرة »^(١) .

وروى أحمد رضى الله عنه بسنده عن عبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه ، قال : خرج رسول الله ﷺ فأتبعته حتى دخل نخلا ، فسجد فأطال السجود حتى خفت أو خشيت أن يكون قد توفاه الله أو قبضه . قال : فجلست أنظر فرجع رأسه ، فقال : « مالك يا عبد الرحمن ؟ » قال : فذكرت ذلك له ، فقال : « إن جبريل عليه السلام قال لي : ألا أبشرك أن الله عز وجل يقول : من صلى عليك صليت عليه ومن سلم عليك سلمت عليه » .

وروى الإمام أحمد في مسنده عن عبد الله بن أبي طلحة عن أبيه أن رسول الله ﷺ جاء ذات يوم والسرور يرى في وجهه فقالوا يا رسول الله إنا نرى السرور في وجهك فقال : « إنه أتاني الملك فقال : يا محمد أما يرضيك أن ربك عز وجل يقول : إنه لا يصلي عليك أحد من أمته إلا صليت عليه عشرا ، ولا يسلم عليك أحد

(١) ابن كثير ج ٦ ط الشعب ص ٤٥٦ ، ٤٥٨ .

على محمد وعلى آل محمد » وذكره . ورواه الشافعي رحمه الله في مسنده عن أبي هريرة عنه . ومن هنا ذهب الشافعي رحمه الله إلى أنه يجب على المصل أن يصلي على رسول الله ﷺ في التشهد الأخير فإن تركه لم تصح صلاته^(١) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا يزيد بن هارون أخبرنا إسماعيل عن أبي داود عن بريدة قال : قلنا يا رسول الله : قد علمنا كيف نسلم عليك ، فكيف تصلي عليك ؟ قال : « قولوا : اللهم اجعل صلواتك ورحمتك وبركاتك على محمد وعلى آل محمد كما جعلتها على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد » .

وروى ابن ماجة بسنده عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال : إذا صليت على رسول الله ﷺ فأحسنوا الصلاة عليه ، فإنكم لا تدرون لعل ذلك يعرض عليه . قال : فقالوا له فقلنا ، قال : قولوا : اللهم اجعل صلواتك ورحمتك وبركاتك على سيد المرسلين ، وإمام المؤمنين ، وخاتم النبيين ، محمد عبدك ورسولك ، إمام الخير وقائد الخير ، ورسول الرحمة ، اللهم ابهته نقمنا محمدا يعطيه به الأولون والآخرون . اللهم صل على محمد وعلى آل محمد ، كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم ، إنك حميد مجيد [أشار ابن كثير إلى وقته] .

وفي رواية قالوا : يا رسول الله علمنا السلام عليك فكيف الصلاة عليك ؟ قال : « اللهم صل على محمد وعلى آل محمد ، كما صليت على إبراهيم وآل إبراهيم إنك حميد مجيد ، وارحم محمدا وآل محمد ، كما رحمت آل إبراهيم ، إنك حميد مجيد ، وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم إنك حميد مجيد » فيستدل بهذا الحديث من ذهب إلى جواز الترحيم على النبي ﷺ كما هو قول جمهور العلماء ، ويقول حديث الأعرابي الذي قال : اللهم ارحمني ومحمدا ولا ترحم معنا أحدا . فقال رسول الله ﷺ : « لقد حجرت واسعا (أى : ضيقا) »^(٢) .

(١) تفسير ابن كثير ط الشعب ج ٦ ، ص ٤٥٠ .

(٢) ابن كثير ط الشعب ج ٦ ، ص ٤٥٤ . وروحه الله أبود صيفا كثيرة .

أمتك إلا سلمت عليه عشرا قلت : بلى^(١) .

وقال الإمام أحمد رواية عن أنى هريرة رضى الله عنه عن النسي عليه السلام أنه قال : « صلوا على فائنا زكاة لكم ، وسلوا الله لي الوسيلة فائنا درجة في أعلى الجنة ولا ينالها إلا رجل وأرجوا أن أكون أنا هو »^(٢) [وإسناده فيه بعض من تكلم فيه] .

معنى طلب الوسيلة لرسول الله أن يقول العبد : اللهم رب هذه الدعوة النامة ، والصلاة القائمة ، آت محمدا الوسيلة والفضيلة ، وابنه مقامنا محمودا الذى وعدته .

وروى الإمام أحمد بسنده عن عبد الله بن عمرو رضى الله عنه قال : من صلى على رسول الله عليه السلام صلاة صلى الله عليه وملائكته بها سبعين صلاة فليقل بعد ذلك أو ليكثر .

وعن عبد الله بن عمرو قال : « خرج علينا رسول الله عليه السلام يوما كالودع فقال : أنا محمد النسي الأمي - قاله ثلاث مرات - ولا نبي بعدى ، أوتيت فوائح الكلام وخواتمه وجوامعه ، وعلمت كم خزنة النار ، وحلة العرش ، ونجوز لى ، عوفيت وعوفيت أمتى ، فاسموا وأطيعوا ما دمت فيكم ، فإذا ذهب لى فعليكم بكتاب الله أحلوا حلاله ، وحرموا حرامه » .

من أبخل الناس ؟

بين الرسول عليه السلام فى أحاديثه أن البخيل بل إن أبخل الناس من إذا سمع اسم الرسول يذكر فلا يصلى عليه . قال عليه السلام : « البخيل من ذكرت عنده ثم لم يصل على » [رواه النسائي وابن حبان] .

وقال عليه الصلاة والسلام : « بحسب امرئ من البخيل أن أذكر عنده فلا يصل على » .

(١) ابن كثير ط الشعب ج ٦ ، ص ٤٥٦ ، ٤٥٨ .
(٢) ينظر حديث مسلم في إحياء الموات في الصفحة التالية .

وروى الترمذى بسنده عن أنى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله عليه السلام قال : « رغم أنف امرئ ذكرت عنده فلم يصل على » ، ورغم أنف امرئ دخل رمضان عليه ثم انسلك قبل أن يغفر له ، ورغم أنف رجل أدرك أبواه عنده الكبر فلم يدخله الجنة » [حديث حسن . وقال الشيخ شاكر رحمه الله : إسناده صحيح] .

وعن أنى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله عليه السلام قال : « ما جلس قوم مجلسا لم يذكروا الله فيه ولم يصلوا على نبيهم إلا كان عليهم ترة يوم القيامة فإن شاء عذبهم وإن شاء غفر لهم » [ينظر تفسير ابن كثير للآية] .

وقد روى أبو هريرة عن النسي عليه السلام أنه قال : « ما من قوم يقعدون ثم يقومون ولا يصلون على إلا كان عليهم يوم القيامة حسرة ، وإن دخلوا الجنة لا ينجون من الثواب » .

وروى الإمام أحمد رضى الله عنه بسنده عن عبد الله بن عمرو بن العاص أنه سمع رسول الله عليه السلام يقول : « إذا سمعتم مؤذنا فقولوا مثل ما يقول ثم صلوا على فائنا من صلى على صلاة ، صلى الله بها عشرا ، ثم سلوا الله لي الوسيلة فائنا منزلة في الجنة لا تنبغى إلا لعبد من عباد الله ، وأرجو أن أكون أنا هو ، فمن سأل الله لي الوسيلة ، حلت عليه الشفاعة » [رواه مسلم وأبو داود والترمذى] .

وعن أنى هريرة رضى الله عنه أن النسي عليه السلام قال : « صلوا على فإن صلاحكم على زكاة لكم ، وسلوا الله لي الوسيلة ، والوسيلة أعلى درجة في الجنة » .

وروى الإمام أحمد بسنده عن رويغ بن ثابت الأنصاري أنه قال : قال رسول الله عليه السلام : « من صلى على محمد وقال : اللهم أنزله المقعد المقرب عندك يوم القيامة وجبت له شفاعتى » [رواه البيهقي والطبراني وبعض أسانيدهم حسن] .

وكان ابن عباس رضى الله عنهما يقول : اللهم تقبل شفاعة محمد الكبرى وأرفع درجته العليا وأعظمه مؤله في الآخرة والأولى كما أتيت إبراهيم وموسى عليهما السلام .

وروى الإمام أحمد بسنده عن فاطمة الزهراء بنت رسول الله عليه السلام قالت : كان رسول الله عليه السلام إذا دخل المسجد صلى على محمد وسلم ثم قال : « اللهم اغفر ذنوبى

وافتح لي أبواب رحمتك ، وإذا خرج صلي على محمد وسلم ثم قال : اللهم اغفر لي ذنوبي وافتح لي أبواب فضلك .

وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه : إذا مررت بالمسجد فصلوا على النبي ﷺ وروى الترمذي بسنده عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : الدعاء موقوف بين السماء والأرض لا يصعد منه شيء حتى تصل على نبيك . [حديث مرفوع : تحفة الأحاديث] .

وروى الإمام أحمد وأهل السنن وابن خزيمة وابن حبان والحاكم من حديث أبي الجوزاء عن الحسن بن علي رضي الله عنهما قال : علمني رسول الله ﷺ كلمات أقولن في الوتر : اللهم أهدي فيمن هديت ، وعافني فيمن عافيت ، وتولني فيمن توليت ، وبارك لي فيما أعطيت ، وفقني شر ما قضيت ، فإنك تقضي ولا يقضي عليك ، إنه لا يذل من واليت ، ولا يعز من عاديت ، تباركت ربنا وتعاليت .

وزاد النسائي في سننه بعد ذلك : وصلى الله على محمد ﷺ^(١) .

الصلاة على المختار يوم الجمعة وليلتها

ليس هناك أدنى شك في أن خير يوم طلعت فيه الشمس يوم الجمعة ، وذلك لأنه عيد المسلمين ، والسموات والأرض تحتفي بهذا اليوم العظيم .

ومن أفضال هذا اليوم أن الصلاة على رسول الله ﷺ فيه لها أعلى المكانات وأعظم الدرجات مما يستحب معه الاكثار من الصلاة على النبي ﷺ يوم الجمعة وليلتها .

اسمع معي ما رواه الإمام أحمد في مسنده بسنده عن أوس بن أوس الثقفي رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « من أفضل أيامكم يوم الجمعة ، فيه خلق آدم ، وفيه قبض ، وفيه النفخة وفيه الصعقة ، فأكثروا علي من الصلاة فيه فإن صلاتكم معروضة علي » قالوا : يا رسول الله وكيف تعرض صلاتنا وقد أرمت ؟ (يعني وقد بليت) . قال : « إن الله حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء » .

وروى عبد الله بن ماجة بسنده عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « أكثروا الصلاة على يوم الجمعة ، فإنه مشهود تشهد الملائكة ، وإن أحدا لن يصل على فيه إلا عرضت على صلاته حتى يفرغ منها . قال : قلت : وبعد الموت ؟ قال : وبعد الموت إن الله حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء » فبني الله حتى يبرز .

وقال الشافعي : أخبرنا إبراهيم بن محمد ، أخبرنا صفوان بن سليم أن النبي ﷺ قال : « إذا كان يوم الجمعة وليلة الجمعة فأكثروا الصلاة على » [مرسل] .

وهكذا يجب على الخطيب أن يصل على النبي ﷺ يوم الجمعة على المنبر في الخطبتين ، ولا تصح الخطبتان إلا بذلك ، لأنها عبادة ، وذكر الله شرط فيها ، فوجب ذكر الرسول ﷺ فيها : كالأذان والصلاة ، وهذا مذهب الشافعي وأحمد رضي الله عنهما . ومن ذلك يستحب الصلاة والسلام عليه عند زيارة قبره ﷺ . قال أبو داود بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « ما منكم من أحد

(١) لم يكثر ما في الشعب ج ٦ ، ص ٤٦٣ .

هؤلاء أحبهم الله

قال عز وجل في الحديث القدسي الجليل : « وجبت محبة للمنتحابين في التراويح في المباذلين في » [رواه مالك بإسناد صحيح عن معاذ بن جبل رضي الله عنهم] .

إن من عباد الله ناساً ما هم بأنبياء ولا شهداء ، يخطبهم^(١) الأنبياء والشهداء يوم القيامة بمكانهم من الله ، قالوا : يا رسول الله نخبرنا من هم ؟ قال : « هم قوم تحابوا بروح الله على غير أرحام بينهم ، ولا أموال يتعاطونها ، فوالله إن وجوههم لنور ، وإنهم لعل نور ، لا يخافون إذا خاف الناس ولا يحزنون إذا حزن الناس ، وقرأ قوله تعالى : ﴿ إِنْ أُولَآئِئِنَّ اللَّهَ لَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ » [رواه أبو داود عن رسول الله ﷺ] .

وروى أنس رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال : « ثلاث من كن فيه وجد بين طعم^(٢) الإيمان : من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، ومن أحب عبداً لا يحبه إلا الله ، ومن يكره أن يعود في الكفر بعد أن أنقذه الله منه كما يكره أن يلقى في النار » [رواه الشيخان والترمذي والنسائي] .

وروى الترمذي عن معاذ عن رسول الله ﷺ في الحديث القدسي : « المتحابون في جلالي لهم منابر من نور يخطبهم السيون والشهداء » .

وروى أبو هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال : « يقول الله تعالى يوم القيامة : أين المتحابون لجلالي : اليوم أظلمهم في ظل يوم لا ظل إلا ظلي » [رواه مالك ومسلم] .

وعن أبي ذر قال : يا رسول الله : الرجل يحب القوم ولا يستطيع أن يعمل بعملهم ،

(١) يخطبهم : أي يسمون أن يكون لهم مرتبة وإن كانت المزية لا تقتضي الأفضلية . والحديث رواه النسائي وابن حبان في صحيحه واللفظ له هناك ، متفقاً على الترغيب والترهيب ج ٢ ، ص ٧٨٨ .

(٢) طعم : حلاوة .

يسلم على إلا زدة الله على روعي حتى أرد عليه السلام » [تفرد به أبو داود وصححه التور في الأذكار] .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لا تجعلوا بيوتكم قبوراً ، ولا تجعلوا قبرى عبداً ، وصلوا على فإن صلاحكم بلغني حينئذ » [سنن أبي داود] .

صلى عليك الله يا علم الهدى ، ما هبت السائم ، وما ناحت على الأيك الحمام .
سيدى أبا القاسم يا رسول الله :

صلت عليك ملائكة الرحمن

لما طلعت على الوجود مزوفاً
بحمى الإله وروية القرآن

تباركت ربنا وتعاليت ، جلت حكمتك ، وعمت رحمتك ، وعظمت رأفتك ، أرسلته هادياً للناس ، ووصفته في التوراة بقولك : « يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً وحرزاً للأميين ، أنت عبدى ورسولى ، سميتك الموكل ، ليس بفظ ولا غليظ ولا سخاب فى الأسراق ، ولا يدفع بالسينة السينة ، ولكن يعفو ويغفر ، ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء ، بأن يقولوا لا إله إلا الله ، فيفتح بها أعينا عمياً وآذاناً صماً وقلوباً غلفاً »^(١) .

صلوات ربى وسلامه عليك يا مبعوث العناية الإلهية ، يا من أرسلك الله رحمة للعالمين ، يا خاتم الأنبياء والمرسلين ، يا قائد الفخر المحجلين ، يا إمام الموحدين : يا من قال الله فى شأنك : ﴿ وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً ﴾ .

وقال فى شأنك : ﴿ إِنْ أَلَّ اللَّهُ مَلائِكَتَهُ يَصُفُّونَ عَلَى النَّبِيِّ ، يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً ﴾ .

(١) البداية والنهاية والشعائل لأبى كثير .

التقوى

قال الله تبارك وتعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴾ [التوبة : ٤] التقوى هي السلاج الأتقى ، ولذا جاءت جامعة لكل معاني الإنسانية ، ولكل معاني البر . قال الله جل شأنه : ﴿ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنْ اتَّقُوا اللَّهَ ﴾ [النساء : ١٣١] .

وقال تبارك اسمه : ﴿ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مِنَ اتَّقَى ﴾ [البقرة : ١٨٩] .

ولقد سئل الإمام علي كرم الله وجهه عن التقوى فقال : التقوى هي : الخوف من الجليل ، والعمل بالتنزيل والرضا بالقليل ، والاستعداد ليوم الرحيل .

ولقد أشار رسول الله ﷺ إلى صدره وقال : « التقوى ها هنا » ، وهذه الكلمة الجامعة رسالة الأنبياء إلى أقوامهم ، فمن اتقى الله خافه ، ومن خاف الله عرفه ، ومن عرف الله أحبه ، ومن أحب الله أحبه الله .

قال تبارك اسمه : ﴿ يَجْهَدُونَ ﴾ ومن يحب الله وأحبه الله استجيبا من الله ، ومن كان الحياء خلقه لزم الوقوف على طاعة من أحبه ، وإلا لم يكن صادقا في دعواه .

اقرأ معنى :

تعصى الإله وانت تظهر حبه
هذا لعمرى فى القياس بديع

لو كان حبك صادقا لأطعته
إن المحب لمن يحب مطيع

حقيقة التقوى : ألا يراك ربك حيث نباك ، وألا يفقدك حيث أمرك .

ولذا قيل لتقى الدين الحسن البصري رضى الله عنه : ما سر زهدك في الدنيا ؟ قال : أربعة أشياء : علمت أن رزقي لا يأخذه غيرى فاطمأن قلبي ، وعلمت أن عملي

قرب . أنت يا أبا ذر مع من أحببت » . قال : فإن أحب الله ورسوله : قال : فأبذل مع من أحببت » ، فأعادها أبو ذر ، فأعادها ﷺ .

وعن النبي ﷺ أنه قال : « عن يمين الرحمن - وكلنا يديه يمين - رجال ليسوا بأنبياء ولا شهداء ، يغشى بياض وجوههم نظر الطافرين ، يغطهم النيون والشهداء بمقدمهم وقبرهم من الله عز وجل » ، قيل : من هم يا رسول الله ؟ قال : « جماع من نوازع القاتل (أى أخلاط من أعراب القاتل) يجمعون على ذكر الله فيستقون أطيب الكلام كما يستقى آكل التمر أطيبه » .

وروى مسلم عن أنى هريرة عن رسول الله ﷺ أن رجلا زار أنحاه في قرية أخرى ، فأرصد الله على مدرجته ملكا ، فلما أتى عليه قال : أين تريد ؟ قال : أريد أنأتالي في هذه القرية . قال : هل لك عليه من نعمة تربتها ؟ قال : لا ، غير أنى أحبته في الله ، قال : فإنى رسول الله إليك ، أن الله قد أحبك كما أحبته فيه .

[المدرجة : الطريق . تربتها : تقوم وتسمى لصلاحها] .

وعن أنى أمانة عن رسول الله ﷺ أنه قال : « من أحب الله ، وأغض الله ، وأعطى الله ، ومنع الله ، فقد استكمل الإيمان » [رواه أبو داود ، والحاكم وصححه على شرط الشيخين ووافقه الذهبي] .

وروى الترمذى وأبو داود عن القدام عن رسول الله ﷺ : « إذا أحب الرجل أخاه فليخبره أنه يحبه » .

ندرك مما مضى أن من طرق الوصول إلى محبة الله :

أولاً : الحب في الله ، وهذه المحبة لا تتحقق إلا إذا كانت خالية من الغرض ، إنجابية في الخير .

ثانياً : التراور في الله .

ثالثاً : البذل في الله .

وهذه كلها طرق سهلة وميسرة وتأتيتها كثيرة وكبيرة وعظيمة عند الله .

فأنت ترى تفسير التقوى في هذا الموضع أولاً : بالتوجه إلى الله بالدعاء أن يغفر الذنوب ويقيم عذاب النار ، وثانياً : بالصبر والصدق والتقوى والانفاق والاستغفار بالأسحار .

وفي موضع آخر يقول الله تعالى في وصف المؤمنين : ﴿ وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين . الذين ينفقون في السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين . والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلا الله ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون . أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم وجنت تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وهم نعم أجر العاملين ﴾ [آل عمران : ١٣٣ - ١٣٦] .

وفي موضع آخر يصف الله المؤمنين بقوله : ﴿ ولقد آتينا موسى وهارون الفرقان وضياء وذكرى للمتقين الذين يحشون ربهم بالغيب وهم من الساعة مشفقون ﴾ .

وفي موضع آخر يصف المؤمنين بقوله : ﴿ إن المؤمنين في جنات وعيون . آخذين ما آتاهم ربهم بأنهم كانوا قبل ذلك محسنين . كانوا قليلاً من الليل ما يهجعون . وبالأسحار هم يستغفرون . وفي أموالهم حق للسائل والمحروم ﴾ [الذاريات : ١٥ - ١٩] .

وفي سورة أخرى يقول الله تعالى في وصف المؤمنين : ﴿ إن المؤمنين في جنات ونعيم . فأكبر بما آتاهم ربهم ووقاهم ربهم عذاب الجحيم . كانوا واشربوا هيناً بما كنتم تعملون . متكئين على سرر مصفوفة وزخاتهم بحور عين . والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذريتهم وما ألتناهم من عملهم من شيء كل امرئ بما كسب رهين . وأمددناهم بفاكهة ولحم مما يشتهون . يتنازعون فيها كأنما لا نقو فيها ولا تأثم . ويطوف عليهم غلمان لهم كأنهم لؤلؤ مكنون . وأقبل بعضهم على بعض يتسائلون . قالوا إنا كنا قبل في أهلنا مشفقين . فمن الله علينا ووقانا عذاب السموم . إنا كنا من قبل ندعوه إنه هو البر الرحيم ﴾ [الطور : ١٧ - ٢٨] .

فأنت ترى في المشهد الكريم أن هؤلاء المؤمنين قد وصفهم الله بالإشفاق أى الحرف من معصية الله ، حملوا الله عليهم شهيداً وكيلاً ورفيقاً وسميحاً وبصيراً وعلماً : ﴿ يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ﴾ [غافر : ١٩] ﴿ إن الله لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء . هو الذي يصوركم في الأرحام كيف يشاء لا إله

لا يقوم به سوى ناشطت به ، وعلمت أن الله مطلع على فاستحييت أن يراني على معصية ، وعلمت أن الموت ينتظرني فأعدت الزاد للقاء الله^(١) .

تزود من حياتك للمعملة

وقم لله واجمع خير زاد
ولا تركن إلى الدنيا قليلاً
فإن المال يجمع للنفساء
اترضى أن تكون رفيق قوم
لهم زاد وانت بغير زاد

وكلمة التقوى هذه كانت المقياس الصحيح للدعوة إلى الله : ﴿ وإذا نادى ربك موسى أن اتت القوم الظالمين . قوم فرعون ألا يتقون ﴾ [الشعراء : ١٠ - ١١] ﴿ كذبت قوم نوح المرسلين . إذ قال لهم أخوهم نوح ألا تتقون ﴾ [الشعراء : ١٠٥ - ١٠٦] ﴿ كذبت عاد المرسلين . إذ قال لهم أخوهم هود ألا تتقون ﴾ [الشعراء : ١٢٣ - ١٢٤] ﴿ كذبت قوم لوط المرسلين . إذ قال لهم أخوهم لوط ألا تتقون ﴾ [الشعراء : ١٦٠ - ١٦١] ﴿ كذب أصحاب الأيكة المرسلين . إذ قال لهم شعيب ألا تتقون ﴾ [الشعراء : ١٧٦ - ١٧٧] .

﴿ ألم . ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين . الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة وما رزقاهم ينفقون . والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون . أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون ﴾ [البقرة : ١ - ٥] .

وهكذا ورد تفسير التقوى في هذا المشهد بالإيمان بالغيب ، وإقام الصلاة والانفاق بما رزق سبحانه ، والإيمان بالكسب السابقة وبالقرآن الكريم ، كما ورد تفسيرها بمعنى آخر جليل في قوله حل شأنه : ﴿ قل أوتيتكم بحج من ذلكم اتقوا اتقوا عند ربهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وأزواج مطهرة ورضوان من الله والله بصير بالعباد . الذين يقولون ربنا إنا آما فافتقر لنا دنوبنا وقنا عذاب النار . الصابرين والصادقين والقانتين والمنفقين والمستغفرين بالأسحار ﴾ [آل عمران : ١٥ - ١٧] .

(١) انظر : أدب الدين والدنيا للمصري .

ذلك أن الصبر فضيلة من أجل الفضائل ، ولذا قال الله في جزاء أصحابها : ﴿ إِنَّمَا يُولَى الصَّابِرُونَ أَجْرُهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [الزمر : ١٠] .

وقد أخبر حل شأنه أنه يحب الصابرين فقال : ﴿ وكأين من نبي قاتل معه ربيون كثير فما وهبوا لما أصابهم في سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا والله يحب الصابرين ﴾ [آل عمران : ١٤٦] .

الصبر هو مقاومة النفس للهوى لئلا تنقاد للقائح ، أو هو ثبات باعث على الدين في مقابل باعث على الشهوات ، وينقسم إلى قسمين :

(١) صبر جسماني .

(٢) صبر نفسياني .

وقد اجتمع في قول أبي سعيد الخدري وأبي هريرة رضي الله عنهما عن الرسول ﷺ أنه قال : « ما يصيب المؤمن من نصب ، ولا وضب ، ولا هم ولا غم ولا حزن ولا أذى حتى الشوكة يشاكها وصبر عليها (أي : يحسبها) إلا كفر الله بها من خطاياها » [وتنتظر رواية مسلم لتغاير اللفظ والمعنى واحد] .

فأنت إذا صبرت على تحمل الشدائد في سبيل لقمة العيش ، فأنت من الصابرين الذين إذا بأثوا كآلين من عمل أيديهم ، باتوا مغفورا لهم .

أما الصبر النفسي ، فأقسام أربعة :

(١) الصبر عن الشهوة الجنسية : عفة .

(٢) الصبر عن شهوة الغنى : قناعة .

(٣) الصبر على جهالة الماهلين : حلم .

(٤) الصبر على احتمال المصائب : شجاعة .

وبهذا يتبين لنا أن الصبر فضيلة ، وأن الجزع - وهو المقابل - رذيلة ، وهذا مثل من أمان صبر الرسول ﷺ التي تعددت في الشدائد .

وهذا الشهد وقع يوم أحد ، مع أمر الناس وأكرم الرجال وأنشجع الفتيان : إنه

إلا هو العزيز الحكيم ﴾ [آل عمران : ٥ - ٦] .

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ [النساء : ١] .

ومن ثم فإن مدار التقوى على مخافة الله ، لأن من خاف سلم ، ومن سلم نجا ، ومن نجا فقد فاز ، وذلك هو الفوز العظيم .

ولست أرى السعادة جمع مال

ولكن التقى هو السعيد

وتقوى الله خير الزاد ذخرا

وعند الله للأتقى مزيد

وإدراك الذي ياتى قريب

ولكن الذي يمضى بعيد

فيل لتقى الله الحسن البصري : أي الأيام عدك عيد ؟ فقال : كل يوم لا أعصى الله فيه ، فهو عيد .

إذا المرء لم يلبس ثيابا من التقى

تقلّب غريانا ولو كان كاسيا

وخير لباس المرء طاعة ربه

ولا خير فيمن كان لله عاصيا

يحب الصابرين

من أجل ما يؤتي المؤمن في هذه الدنيا اليقين والصبر ، فإذا اجتمعا لعبد مؤمن عاش في دنياه طيب القلب ، قريب العين ، سعيد الحال . قال تعالى : ﴿ ما عندكم ينفد وما عند الله باق ، ولنجزين الذين صبروا أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون ﴾ [النحل : ٩٦]

شفيت نفسي وقصيب نذرى
شفيت (وحشى) غليل صدرى
فشكر لوحشى على عمرى
حتى ترم اعظمى فى قبرى

وقوف أبو سفيان زوج هند بنت عتبة يضرب فى وجه حمزة برمح مظهر الشامة والشفى، وأبلغ رسول الله ﷺ الخبر المفتح والحدث الجلل... ورأى عمه وأخاه فى الرضاعة ورفيق عمره وقد بقر بطنه، وأخرج كبده ومثله به، وجذع أنفه وأذناه. فقال: «لئن أظهرنى الله على قريش فى موطن من المواطن لأظن بطلائح رجلا منهم». ثم قال: «والله يا عم ما وقتت موقفاً أغبط إلى من هذا» (أى: هذا الموقف).

وقال الرسول للزبير بن العوام: قل لأملك صفة وكانت شقيقة حمزة: «ارجمى حتى لا ترى مصرع أخيك».

فقال لما الزبير: يا أماء: إن رسول الله ﷺ يأمرك أن ترجمى. فقالت: ولم؟ وقد بلغت أن قد مثل بأخى، وذلكم فى الله، فما أرضانا بما كان من ذلك، لأحسن ولأصبر إن شاء الله.

فلما جاء الزبير إلى رسول الله ﷺ فأخبره بذلك قال له: «خلى سبيلها».

ودفن حمزة مع ابن أخيه (عبد الله بن جحش). ونزل سفير الأنبياء وكبير أمماء وحى السماء بهذه الآيات القرآنية، التى تفوح مسكاً وعبيراً وتتفاطر نوراً ورحمة: ﴿وَإِنْ عَاقِبْتُمْ فَانْقَبُوا بِمَثَلٍ مَا عَوَّيْتُمْ بِهِ وَلَنْ يُصِرَّكُمْ لَهْوَ الْغَيْرِ لِلصَّابِرِينَ. وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَلَالٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ. إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾ [النحل: ١٢٦ - ١٢٨].

وصبر الرسول ﷺ راضياً بقضاء الله وقدره. وكيف لا وهو سيد الصابرين وإمام الشاكرين العابدین.

حمزة بن عبد المطلب أسد الله، وعم رسول الله وأخوه فى الرضاعة، والذى قال فيه سى الحبيب: «جاءنى جبريل فأخبرنى أن حمزة بن عبد المطلب مكتوب فى أهل السموات السبع: أسد الله وأسد رسوله».

كان حمزة رضى الله عنه يعرف عظيمة ابن أخيه وكأله، وكان على بيته من حقيقة أمره وجوهر خصاله.

فهو لا يعرف معرفة العم بابن أخيه فحسب، بل يعرفه معرفة الأخ والصديق، ذلك أن الرسول ﷺ وحمزة رضى الله عنه من جيل واحد، وسن متقاربة، نسا منا وتآخيا ممّا وساراً ممّا على الدرب من أوله خطوة خطوة.

دارت المعركة يوم أحد، واشتد القتال، وحى الوطيس، وصنت الألسنة، ونطقت الألسنة، وخطبت السيوف على منابر الرقاب، وأقدمت الرماح على الخطط الصماب.

فلا ترى إلا رعوساً تنفر، ودماء تهدر، ورخصت الأرواح فى أسواق الموت، وتخشى ملك الموت يقبض أرواح أعداء الله إلى جهنم، وفشت الجنة أبوابها تستقبل الشهداء الذين كتبوا بدمائهم صفحات الفخار والمجد، ونزل أسد الله حمزة الميدان وهاج فى صفوف المشركين، وزأر زئير الأسود إذا دبس (هوجم) عربها، قال (وحشى ابن حرب): «والله إني لأنظر حمزة يهدد الناس بسيفه، ثائر الرأس، ما يلقى شيئاً يمر به، مثل الجمل الأورق، إذ قد تقدمنى إليه (سباع) وهو يقول: ألا من مبارز؟ فقال له حمزة: هلم، ثم ضربه ضربة هائلة قتله. قال وحشى: وكنت كامناً وراء صخرة لا يرانى وهزئت حربى، حتى إذا رضيت عنها دفعها عليه فوقعت فى ثيبيه حتى خرجت من بين رجله، فأقبل نحوى فقبلت فوقع، وأمهله حتى إذا مات حدث فأخذت حربتى، ثم تحيت إلى العسكر، ولم يكن لى حاجة بشيء غيره. وكان ذلك آخر العهد به. وأقبلت هدا بنت عتبة، على حمزة ففقرت كبده ولاكها، فلم تستطع أن تسيبها فللقطها، ثم علت على صخرة مشرفة فصرخت بأعلى صوتها وقالت:

نحن جزيناكم بيوم بدر
والحرب بعد الحرب ذات سمر

من أقوال الرسول ﷺ في الصبر

عن أبي مالك الأشعري رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « الطهور شرط الإيمان ، والحمد لله تملأ الميزان ، وسبحان الله والحمد لله تملأ - أو تملأ - ما بين السماء والأرض ، والصلاة نور ، والصدقة برهان ، والصبر ضياء ، والقرآن حجة لك أو عليك ، كل الناس يغدو فإِنَّه نفسه فمعتقها أو موثقها » [رواه مسلم والترمذى ، وابن ماجة إلا أنه قال : إسباغ الوضوء شرط الإيمان] .

وعن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال : « ومن يصبر يصبره الله ، وما أعطى أحد عطاء خيراً وأوسع من الصبر » [رواه البخارى ومسلم] .

وعن أنس عن النبي ﷺ قال : « أربع لا يصبن إلا بعجب : الصبر وهو أول العباد ، والتواضع وذكر الله ، وقلة الشيء » [رواه الطبراني] .

وروى الترمذى عن أنس رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « الزهادة في الدنيا ليست بتحريم الحلال ولا إضاعة المال ، ولكن الزهادة في الدنيا أن لا تكون بما في يدك أوثق منك بما في يد الله ، وأن تكون في ثواب المصيبة إذا أنت أصبت بها أرغب فيها لو أنها أبقيت لك » .

وعن علقمة قال : قال عبد الله : الصبر نصف الإيمان ، واليقين الإيمان كله [رواه الطبراني في الكبير] .

وعن جعفر بن أبي طالب أن النبي ﷺ قال : « الصبر مفعول (أى : الخور والودد الذى يشده ويثبته) المسلم » .

وعن صهيب الرومى رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « عينا لأمر المؤمن ، إن أمره كله خير ، وليس ذلك إلا للمؤمن : إن أصابته سراء شكر ، فكان خيراً له ، وإن أصابته ضراء صبر ، فكان خيراً له » [رواه مسلم] .

وعن أبي الدرداء رضى الله عنه قال : سمعت أبا القاسم ﷺ يقول : « إن الله عز

١٥٢

وجل قال : يا عيسى إني باعث من بعدك أمة ، إن أصابهم ما يحبون حمدوا الله ، وإن أصابهم ما يكرهون أحسبوا وصبروا ، ولا حلم ولا علم . فقال يارب : كيف يكون هذا ؟ قال : أعطيتهم من حلمي وعلمي » [رواه الحاكم وقال : صحيح على شرط البخارى ، متفق الترمذى والزهري : ح ٢ ، ص ٨٨١] .

وقال رسول الله ﷺ : « من أعطى فشكر ، وأبلى فصبر ، وظلم فاستغفر ، وظلم فغفر ، ثم سكت ، فقالوا يا رسول الله : ما له ؟ قال : أولئك هم الأمن وهم مهتدون » [رواه الطبراني] .

وعن أم سلمة رضى الله عنها قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « ما أبلى الله عبداً ببلاء وهو على طريقة يكرهها إلا جعل الله ذلك البلاء كفارة وظهوراً ما لم ينزل (ينسب ويفوض) ما أصابه من البلاء بغير الله عز وجل ، أو يدعو غير الله في كشفه » .

وعن مصعب بن سعد عن أبيه قال : قلت يا رسول الله : أى الناس أشد بلاء ؟ قال : « الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل ، يتلى الرجل على حسب دينه ، فإن كان دينه صلباً اشتد بلاؤه ، وإن كان في دينه رقة ابتلاه الله على حسب دينه ، فما يبرح البلاء بالعبد حتى يمشى على الأرض وما عليه خطيئة » [رواه ابن ماجة والترمذى وقال : حديث حسن صحيح] .

المقاتلون في سبيل الله

إن الله تبارك وتعالى يحب المحسنين ، ويحب التوابين والمنطهرين ، والمتحابين فيه ، والمتزاورين فيه ، والمتباذلين فيه ، والمنفقين والصابرين .

وها هو القرآن الكريم في جلاله وعظمته بين ويؤكد - إضافة إلى ما سبق - أن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً كأنهم ببياى مروضى .

روى الترمذى عن عبد الله بن سلام قال : كنت جالساً في نفر من أصحاب النبي

١٥٣

ﷺ تذكر تقول : لو كنا نعلم أى الأعمال أحب إلى الله لعملناه ، فنزل قوله تعالى : **سبح لله ما فى السموات وما فى الأرض وهو العزيز الحكيم . يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون . كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون .** إن الله يحب الذين يقاتلون فى سبيله صفا كأنهم ببان مرفوض **﴿﴾** [الصف : ١ - ٤] .

إن الحق لا يد أن تسانده قوة تدافع عنه ، ولذا قال تعالى : **﴿﴾** لقد أرسلنا رسلا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب إن الله قوى عزيز **﴿﴾** [الحديد : ٢٥] .

وقد ضمن الله النصر لعباده المؤمنين فقال : **﴿﴾** إنا لننصر رسلا والذين آمنوا فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد **﴿﴾** [غافر : ٥١] . وقال : **﴿﴾** كتب الله لأغلين أنا ورسلى إن الله قوى عزيز **﴿﴾** [المجادلة : ٢١] .

ولا مجال للتنازح فإن المستقبل للإسلام ويشتر بأن حكم الله وما أنزله على نبيه لا بد أن يفتى إليه العالم ... بمعنى أن الإسلام قديم قديم بآذن الله عاجلاً أو آجلاً .. لا محالة .

جاء فى الصحيح : **« من قال : هلك المسلمون فهو أهلكتهم » .**

وقال عليه الصلاة والسلام : **« أمتى مثل المطر ، لا يدرى آخره خير أم أوله » .**

وكيف يتشاهم المسلم والمشرك قد وردت على لسان رسول الله ﷺ وهو الصادق الأمين :

جاء فى الحديث الصحيح : **« إن الله زوى لى الأرض فأرئت مشرقها ومغربها ، وإن أمتى سيلغ ملكها ما زوى لى منها » .**

ويقول عليه الصلاة والسلام : **« ليلغن هذا الأمر ما بلغ الليل والنهار ، ولا يترك الله بيت مدر ولا وبر إلا أدخله الله هذا الدين يعز عزيز أو بذل بذل يعز الله به الإسلام وذلاً يذل به الكفر » .**

وقد مثل الرسول ﷺ : أمتى المدينين تفتح أولاً : القسطنطينية أو رومية ؟ فقال عليه الصلاة والسلام : **« مدينة هرقل تفتح أولاً »** يعنى قسطنطينية .

ثم يتشابه نبي الله ﷺ يوحى من الله ما كان وما سوف يكون فيقول بلسان الصادق الأمين : **« إن أول دينكم نبوة ورحمة ، وتكون فيكم ما شاء الله أن تكون »** ، ثم يرفعهما الله جل جلاله ، ثم تكون خلافة على مناج النبوة تكون فيكم ما شاء الله أن تكون ، ثم يرفعهما جل جلاله ، ثم تكون ملكاً عائداً (أى : عضوياً) فيكون ما شاء الله أن يكون ، ثم يرفعه جل جلاله ، ثم يكون ملكاً جبرياً فيكون ما شاء الله أن تكون ، ثم يرفعهما الله جل جلاله ، ثم تكون خلافة على مناج النبوة تعمل فى الناس بسنة النبى ويلقى الإسلام بحرانه فى الأرض يرضى عنها ساكن السماء وساكن الأرض ، لا تدع السماء من قطر إلا صبه مدراراً ، ولا تدع الأرض من نباتها ولا بركاتها شيئاً إلا أخرجه **« .**

صادقت يا رسول الله فأنت الصادق الأمين ، والإنسان المصوم الذى ما ينطق عن الهوى ، إن هو إلا وحى يوحى .

وبعد ...

قد كانت هذه إشعاعات من نور أضاءت لنا الطريق فى قضية الأروحية ، وفى الحديث عن نبي الرحمة ، وأثر الاقتداء به ، وبيناً فيها الصفات التى يجب على كل مسلم أن يتحلى بها حتى ينال محبة الله .

ومهما كتب القلم وأملى اللسان وفكر الجنان وعبر البيان ، فما كل هذا إلا جزء من كل ، ونغض من فيض ، وسطر من قسط ، وقطرة من بحر ، وما أنا بحجاب هذه الحقائق وتلك المبادئ ، إلا كشعاع الشمس المتصلل من حنايا الدافئة .

وما أنا منك يا رسول الله ، إلا كذلك الأعرجى الذى ضل الطريق فى الصحراء ، فلما طلع القمر اهتدى بنوره فى مسالك الشعاب ، فقال للقمر : **أيها القمر أنا لا أدري ماذا أقول لك ؟** أقول رفعتك الله ؟ لقد رفعتك . أقول : حملك الله ؟ لقد حملك . أقول نورك الله ؟ لقد نورك .

وأنا ماذا أقول عنك يا رسول الله ؟

أقول : رفعتك الله ؟ لقد رفع الله ذكرك ، فقال : **﴿﴾** ورفعنا لك ذكرك **﴿﴾** .

(١) نهر بدايات هذا الحديث فى حد ١ من الفهم واللاحم (البداية والنهاية) لأن كثير .

الفهرس

الصفحة	الموضوع
٥	الإهداء
٨	مقدمة
١١	فصل الساعة آتية لا رب فيها
٢٧	أطوار خلق الإنسان
٢٧	طور الطين
٣٣	طور النطفة
٤٣	الرحم
٤٦	طور العلقة
٥٩	طور المضغة
٦٢	طور العظام واللحم
٦٣	اليوم الحق
٨٠	البعث حق
٨٠	أدلة البعث
٨١	أدلة أخرى
٨٣	عظمة الكون
٨٦	حديث العلم
٩٠	الخلية وحدة الحياة
٩٧	البعث حق
٩٨	القرآن والبعث
١٠١	جدار السفينة فإن البحر عميق
١٥٧	

أقول : خُلتك الله ؟ لقد جعلك فقال : ﴿ وسراجا منيرا ﴾ .

أقول : نُورك الله ؟ لقد نُورك فقال : ﴿ قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين ﴾ .

سيدى آنا القاسم يا رسول الله :

يا سيدى يا رسول الله معذرة

إذا كُبا^(١) فيك تبيانى وتعبيرى

ماذا أوفيك من حق وتكرمة

وأنت تعلو على ظنى وتقديرى^(٢)

أقبلت كال فجر وضاح الأسارى

تدعو إلى الله فى بشر وتيسير

على جبينك نور الحق منبجاً

وفى يدك لواء العدل والنور

صلى الله عليك يا علم الهدى . ما هبت السائم ، وما ناحت على الأياك الخنائم .

تم بحمد الله

المؤلف

عبد الحميد كشك

(١) فسر وما وحى حقا من البيان لمزرك وتعطيك .

(٢) نحن كلنا ذورك .. فكيف يوفقك حقا فى كل شئ .

الصفحة	الموضوع
١٠٦	ثمرات الحب في الله
١٠٧	أكثر من الزاد فإن السفر طویل
١١٠	جملة من وصايا الرسول - ﷺ -
١١٣	اخلف العمل فإن الناقد بصير
١١٤	كلمة حق خالدة
١١٥	الصدق في القول والإخلاص في العمل
١١٧	خفف الحمل فإن العقبة كثرة
١١٨	الأسوة الحسنة
١٢١	رجاء الله واليوم الآخر
١٢٧	ذكر الله تعالى
١٢٨	آداب الذكر
١٢٩	أنواع الذكر
١٣٣	الصلاة على رسول الله ﷺ
١٣٥	كيفية الصلاة على رسول الله ﷺ
١٣٧	بركات الصلاة على رسول الله ﷺ
١٣٨	من أغفل الناس
١٤١	الصلاة على المختار يوم الجمعة وليها
١٤٣	هؤلاء أحبه الله
١٤٥	التقوى
١٤٨	يحب الصابرين
١٥٢	من أقوال الرسول ﷺ في الصبر
١٥٣	المقاتلون في سبيل الله
١٥٧	الفهرس